رسالة مختصرة بعنوان :

(الدروس الجهادية المستفادة من أشهر الغزوات النبوية)

الراجي عفو ربه

د.عبد الله القرشي الشامي

1437 هـ

المقدمة

الحمد لله مُعزّ من أطاعه واتقاه، ومذلّ من خالف أمره وعصاه، قاهر الجبابرة وكاسر الأكاسرة، لا يذل من والاه ولا يعز من عاداه، ينصر من نصره ويغضب لغضبه ويرضى لرضاه، أحمده سبحانه وأشكره حمدًا وشكرًا يملآن أرضه وسماه، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله وخيرته من خلقه ومصطفاه، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه والتابعين ولكل من نصره ووالاه.

﴿ يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:102].

﴿يٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ مّن نَّفْسٍ وٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَاءلُونَ بِهِ وَٱلأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء:1].

وبعد:

حين ينظر المرء نظرةً لواقعنا ، ويقارنه بماضينا يتحسر ، يتحسر يوم يَجِد البَوْن شاسعًا و الفرق عظيمًا ، يتحسر يوم يرى تلك الأمة و قد كانت قائدة و إذا بها قد أصبحت تابعة.

الأمة اليوم بحاجة ماسة إلى أن تعود إلى المنهج النبوي والسيرة النبوية لأخذ الدروس والعبر النيرات المباركات, وتتعلم منها الآداب الرفيعة، والأخلاق الحميدة، والعقائد السليمة، والعبادة الصحيحة، وسمو الأخلاق، وطهارة القلب، وحب الجهاد في سبيل الله, وطلب الشهادة في سبيله؛ ولهذا قال علي بن الحسن: «كنا نُعلَّم مغازي النبي كما نُعلَّم السورة من القرآن» وقال الزهري: «في علم المغازي علم الآخرة والدنيا».

وقال إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص: «كان أبي يعلمنا مغازي رسول الله يعدها علينا ويقول هذه مآثر آبائكم فلا تضيعوا ذكرها» .

اقرأوا التَّارِيخَ إِذْ فيه العِبَرْ *** ضَلَّ قَوْمٌ لَيْسَ يَدْرُونَ الخَبَرْ

وها نحن نحط وإياكم في هذه الرسالة المختصرة لاستلهام الدروس والعبر من أشهر الغزوات التي خاضها النبي صلى الله عليه وسلم وحسب ترتيبها الزمني بلا إطالة ولا إسهاب في ذكر الروايات والآثار والأحاديث لتكون سهلة الفائدة للقارئ الكريم.

وأسال الله الكريم الوهاب العزيز التواب أن ينفع بهذا العمل وأن يجعله لوجهه خالصاً ولعباده نافعا وأن يجعله في ميزان حسناتنا وميزان حسنات أصحاب الكتب التي استقيت منها الرسالة وأن يشملني معهم برحمته يوم ألقاه إنه ولي ذلك والقادر عليه .

د. عبد الله القرشي الشامي

1347هـ

غزوة بدر الكبرى

غزوة بدر الكبرى بالأرقام:

عدد المسلمين: 314

عدد المشركين: 1000 تقريبًا

شهداء المسلمين: 14

قتلى المشركين: 70 قتيلاً، و70 أسيرًا وعامتهم من القادة والزعماء والصناديد.

العتاد: المسلمون لم يكن معهم سوى فرسين.

المشركون: 100 فرس عليها مائة درع، سوى دروع في المشاة، و700 ناقة.

سبب غزوة بدر الكبرى: بعد أن بلغ المسلمين تحرُكٌ قافلة تجارية كبيرة من الشام تحمل أموالاً عظيمة لقريش يقودها أبو سفيان ويقوم على حراستها بين ثلاثين وأربعين رجلا ، فأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم بَسْبَس بن عمرو لجمع المعلومات عن القافلة، فلما عاد بسبس بالخبر اليقين، ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه للخروج وقال لهم: «هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها»، وكان خروجه من المدينة في اليوم الثاني عشر من شهر رمضان المبارك من السنة الثانية للهجرة، ومن المؤكد أنه حين خروجه صلى الله عليه وسلم من المدينة لم يكن في نيته قتال، وإنما كان قصده عير قريش, وكانت الحالة بين المسلمين وكفار مكة حالة حرب، وفي حالة الحرب تكون أموال العدو ودماؤهم مباحة، فكيف إذا علمنا أن جزءًا من هذه الأموال الموجودة في القوافل القرشية كانت للمهاجرين المسلمين من أهل مكة قد استولى عليها المشركون ظلمًا وعدوانًا.

بعض الدروس والعبر من غزوة بدر الكبرى :

1-وعسى أن تحبوا شيئا وهو شرٌ لكم:

حين نودي على الجهاد وعد الله المؤمنين هذا الوعد:

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: 7].. والنفس البشرية دائمًا تميل إلى الراحة والدعة وتتوقى المشقة والضرر، ولو كان في الراحة الخسران وفي الضرر والمشقة النصر والتمكين وهذا ما حكاه القرآن، في هذا الوعد ويتأكد في قوله تعالى :﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 216.]

في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب والمحبوب قد يأتي بالمكروه، لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة؛

لعدم علمه بالعواقب، فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد. قال الحسن: لا تكرهوا الملمات الواقعة، فلرب أمر تكرهه فيه نجاتك، ولرب أمر تحبه فيه عطبك، وأنشد أبو سعيد الضرير:

رب أمر تتقيه جرَّ أمرًا ترتضيه ***** خفي المحبوب منه وبدا المكروه فيه.

و(عسى) من الله إيجاب، والمعنى عسى أن تكرهوا ما في الجهاد من المشقة، وهو خير لكم في أنكم تَغلبون وتَظفرون وتَغنمون وتُؤجرون، ومن مات مات شهيدًا، وعسى أن تحبوا الدعة وترك القتال، وهو شر لكم في أنكم تُغلبون وتُذلون ويذهب أمركم، ثم يقول القرطبي معقِّبًا: "وهذا صحيح لا غبار عليه، كما اتفق في بلاد الأندلس، تركوا الجهادَ، وجبُنوا عن القتال، وأكثروا من الفرار، فاستولى العدو على البلاد، وأي بلاد؟! وأَسَرَ وقَتَل وسبى واسترقَّ، فإنا لله وإنا إليه راجعون! ذلك بما قدمت أيدينا وكسبته.!"

هذا الذي قاله الإمام القرطبي على الأندلس نقوله نحن عن فلسطين، وقد انتزعها بضعة ملايين من يهود، من أيدي مليار مسلم؛ وذلك لتركهم الجهاد، وقعودهم عن القتال، وإخلادهم إلى الأرض، واتباعهم الشهوات؛ إذ الجهاد والقتال كريه إلى النفس وبغيض إلى القلب، بينما الترف والشهوات وزينة الأرض محبوبة إلى النفس ويهواها القلب، وغابت عنهم حقيقة هذه الآية، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وفي بدر ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [الأنفال: 7].

2- **قوة الإيمان هي السلاح البتار:**

إذا كان الله قد أمر بإعداد ما نستطيع من قوة لمواجهة الأعداء؛ فإن أعظم القوة الإيمان الصادق بالله، وعدونا لا يخشى في ميدان المعركة الأسلحة التي بأيدينا، ولكنه يخشى من سلاح الإيمان الذي يستمد قوته من الله؛ لأنه السلاح الذي لا يقهر واليقين الذي لا يغلب،

3-قوة الترابط بين المؤمنين: وبعد قوة الإيمان تأتي قوة الترابط بين المؤمنين والمحبة فيما بينهم والتآلف بين قلوبهم، وهذه منَّةٌ من الله ومن أعظم أسرار النصر: يقول الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال:62-63]

إن من أسباب النصر العظيمة في بدر تآلف القلوب وتراحمها، كان أصحاب النبي في قلة من العدد والعدة، ولكن كانت بينهم المحبة والصفاء والمودة، كانوا متراحمين متعاطفين متآلفين متكاتفين متناصرين متآزرين، شعارهم: لا إله إلا الله , وفي معركة بدر تلاشت فيها العصبيات والقبليات وعبية الجاهلية، فلم يكن المسلمون ينتصرون لقبيلة أو لون أو جنسية، بل كانوا ينصرون الإسلام وأهله ويواجهون المشركين أعداء الله بغض

النظر عما بينهم من خلافات إن وُجد بينهم خلافات، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ [النساء:76].

فإصلاح ذات البين وتوحيد الصف، ورفع النزاع والخصومة بين المؤمنين من أولى مقومات النصر ولوازمه، والتفرق والتنازع من أعظم مسببات الضعف والفشل.. ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:42].

4- **الثبات وذكر الله عند لقاء الأعداء:**

في الحديث عن غزوة بدر، والتعقيب عليها في سورة الأنفال يقول الله تعالى :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال:45] أمر الله تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا ولا ينكلوا ولا يجبنوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه، بل يستغيثوا به ويتوكلوا عليه أن يثبت أقدامهم وأن ينصرهم على أعدائهم؛ قال الله تعالى :﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة:250]، وقال الله تعالى :﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: 147]

5- **الشورى بين القائد الجند:**

لما بلغ النبيَّ صلى الله عليه وسلم نجاةُ القافلة وإصرار زعماء مكة على قتال النبي صلى الله عليه وسلم استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه في الأمر, وأبدى بعض الصحابة عدم ارتياحهم لمسألة المواجهة الحربية مع قريش، حيث إنهم لم يتوقعوا المواجهة ولم يستعدوا لها، وحاولوا إقناع الرسول بوجهة نظرهم.

وقد أجمع قادة المهاجرين على تأييد فكرة التقدم لملاقاة العدو.

وحرص النبي صلى الله عليه وسلم على استشارة أصحابه في الغزوات يدل على تأكيد أهمية الشورى في الحروب بالذات؛ ذلك لأن الحروب تقرر مصير الأمم، فإما إلى العلياء، وإما تحت الغبراء.

6- **استكشاف قوة الأعداء :**

قام النبي- صلى الله عليه وسلم - باستكشاف قوة الأعداء بنفسه؛ حيث صحب أبا بكر، وتجوَّلا حول معسكر مكة، وقد كان من هدي النبي صلى الله عليه وسلم حرصه على معرفة جيش العدو والوقوف على أهدافه ومقاصده؛ ولأن ذلك يعينه على رسم الخطط الحربية المناسبة لمجابهته وصد عدوانه, فقد كانت أساليبه في غزوة بدر في جمع المعلومات تارة بنفسه وأخرى بغيره، وكان صلى الله عليه وسلم يطبق مبدأ الكتمان في حروبه، فقد أرشد القرآن الكريم المسلمين إلى أهمية هذا المبدأ قال تعالى: (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ

الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إلى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً) [النساء: 83]

7- **المسلم الصادق موصول بجند السماء:**

إن المسلم في مواجهته للباطل يحشد ما استطاع من قوة، ولا يدَّخر في ذلك وُسعًا، ثم هو بعد ذلك لا يرهب قوة الأعداء، وإن كانت تفوقه عددًا وعتادًا؛ لأنه على يقين من أنه ليس في الميدان وحده، وإنما معه جند الله الذي لا يعلمها إلا هو، وفي بدر يتجلى ذلك في مواقف عدة؛ حيث تنتصر القلة المؤمنة على الكثرة المشركة وذلك بفضل ما سخر الله للمسلمين من جند السماء والأرض والتي كان منها:

أ- الملائكة مدد من السماء: حين استغاث الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين بربهم أمدهم بالملائكة :﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾[الأنفال:9]، والمتأمل يرى أن عدة الملائكة بعدة المشركين، وبذلك يتحقق ما أخبر به الله من البشرى والطمأنينة للمؤمنين :﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال:10].

ب- النوم والمطر: قبل المعركة كان المسلمون في حالة من التعب والإعياء والخوف يحتاجون معها إلى قسط من الراحة قبل المواجهة، كما أن ساحة المعركة كانت في حاجة إلى تجهيز وإعداد بما يمكِّن المسلمين من الحركة في الميدان وفي المقابل يعوق حركة المشركين؛ فأنزل الله عليهم النعاس والمطر ..﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال:11].

يقول الماوردي : وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان:

أحدهما: أن قوَّاهم بالاستراحة على القتال من الغد.

الثاني: أن أمَّنهم بزوال الرعب من قلوبهم، كما يقال: الأمنُ مُنِيم، والخوف مُسْهِر ، وعن علي – قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتُنا وما فينا إلا نائمٌ إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي تحت الشجرة حتى أصبح"، وعن عروة بن الزبير– رضي الله عنه – قال : بعث الله السماء وكان الوادي دهسًا، وأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه منها ما لبَد الأرض ولم يمنعهم المسير، وأصاب قريشًا ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه ، وروي أنهم كانوا على جنابة وظمأ، وأن الشيطان ألقى في قلوبهم الحزن، وقال: أتزعمون أن فيكم نبيًّا، وأنكم أولياء الله، وتصلون مجنبين محدثين؟! فأنزل الله من السماء ماءً فسال عليهم الوادي ماءً؛ فشرب المسلمون وتطهَّروا وثبت أقدامهم وذهبت وسوسته.

ج- **سلاح الرعب:** إن سلاح الرعب من أقوى الأسلحة التي يتحقق بها الغلبة على الأعداء، وهذا السلاح إذا سرى في أقوى الجيوش وأعتاها، فإنه ينهار ولا يغني عنه لا عدد ولا عتاد، وهذا السلاح لا يملك خزائنه إلا من يقدر على الوصول إلى القلب الذي هو محلّ التثبيت والخوف والهلع، وتأمل قول رب القلوب :﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال:12].

ومن خصائص نبينا وخصائص الأمة الإسلامية النصر بالرعب مسيرة شهر؛ فعن جابر بن عبد الله أن النبي- ﷺ- قال" :أعطيتُ خمسًا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة) "([11]).

إن الرعب سلاح يفتك بالمشركين والكافرين قبل المواجهة، قال الله تعالى :﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾[آل عمران: 151]، وفي حق يهود يقول:﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر: 2]، وفي حق الأحزاب :﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾[الأحزاب: 26]؛ فسلاح الرعب سلاح ينفذ إلى أعماق القلوب، فيسلب من أصحابها العقلَ والحسَّ، ويجعلها في حالة من الذهول واللا وعي ﴿لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة:264] .

8-الولاء والبراء من فقه الإيمان:

رسمت غزوة بدر لأجيال الأمة صورًا مشرقة في الولاء والبراء, وجعلت خطًا فاصلاً بين الحق والباطل، فكانت الفرقان النفسي والمادي والمفاصلة التامة بين الإسلام والكفر، وفيها تجسدت هذه المعاني, فعاشها الصحابة واقعًا ماديًّا وحقيقة نفسية، **وفيها تهاوت القيم الجاهلية، فالتقى الابن بأبيه والأخ بأخيه:**

1- كان أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة في صف المسلمين، وكان أبوه عتبة وأخوه الوليد وعمه شيبة في صف المشركين، وقد قتلوا جميعًا في المبارزة الأولى.

2- كان أبو بكر الصديق في صف المسلمين.. وكان ابنه عبد الرحمن في صف المشركين.

3- كان مصعب بن عمير حامل لواء المسلمين، وكان أخوه أبو عزيز بن عمير في صف المشركين، ثم وقع أسيرًا في يد أحد الأنصار، فقال مصعب للأنصاري: شد يدك به فإن أمه ذات متاع، فقال أبو عزيز: يا أخي هذه وصيتك بي؟ فقال مصعب: إنه أخي دونك.

فقد ضرب الصحابة الكرام في بدر مُثلاً عليا لصدق الإيمان، التي تدل على أنهم آثروا رضاء الله ورسوله صلى الله عليه وسلم على حب الوالد والولد والأهل والعشيرة، فلا يعجب المسلم من ثناء الله تعالى على هذه

المواقف الصادقة في قوله تعالى: ﴿ لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآَخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: 22].

9-**النصر مع الصبر:**

من عِبَر يوم بدر أخذنا أن الصبر مفتاح الفرج فما ضاقت الأمور على من صبر، الصبر مفتاح الخير.

أخذنا من غزوة بدر أن مع العسر يسرًا، وأن عاقبة الصبر خير ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله﴾ [النحل:127].

صبر حبيب الله ورسول الله فأقر الله عينه ونصر الله حزبه ﴿بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا ﴾ [آل عمران:125]. فإن وجدت عبدًا من عباد الله قد صُبت عليه المحن والبلايا من الله ونصب وجهه صابرًا لله، فبشره بحسن العاقبة والمآل من الله ، علمنا أن الصبر عواقبه الخير، ولقد صدق رسول الهدى إذ يقول: ((ما أعطي عبد عطاء أفضل من الصبر)). بالصبر يتوسع ضيق الدنيا، وبالصبر تتبدد همومها وغمومها وأحزانها، يطيب العيش وترتاح النفوس وتطمئن القلوب، وصدق عمر وأرضاه إذ قال: (وجدنا ألذ عيشنا بالصبر)

هذه بعض الدروس المهمة التي تستفاد من غزوة بدر على وجه الاختصار.

غزوة أحـد

غزوة احد بالأرقام:

عدد المسلمين: 700

عدد المشركين: 3000 تقريبًا

شهداء المسلمين: 71

قتلى المشركين: 22

العتاد: المسلمون 50 فارس

المشركون: 200 فارس

سبب الغزوة:

أما سبب الغزوة فإنه لما أصيب مشركو قريش يوم بدر، ورجع المنهزمون إلى مكة ونجا أبو سفيان بالعير مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، في رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم، فكلموا أبا سفيان ومن كان له في تلك العير تجارة، فقالوا: يا معشر قريش إن محمدا قد وَتَرَكم وقتل خياركم، فأعينوننا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأرا بمن أصيب منا, فاجتمعوا لحرب

رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث فعل ذلك أبو سفيان وأصحاب العير بأحابيشها ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة.

وقد أنزل الله على إثر هذه الغزوة آيات تتلى إلى يوم الدين، فنزلت ثمان وخمسون آية من سورة آل عمران، تتحدث عن هذه الغزوة، ابتدأت بذكر أول مرحلة من مراحل الإعداد للمعركة في قوله تعالى -:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [13] ، وانتهت بالتعليق الجامع على نتائج المعركة، والحكم التي أرادها الله منها فقال - سبحانه -:

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [14].

وقعت في الخامس عشر من شهر شوال من السنة الثالثة من الهجرة ,قال ابن إسحاق: كان أحد يوم السبت للنصف من شوال , وهي من المعارك التي خاضها النبي بنفسه والتي كانت محلاً لأحداث كبار ودروس وعبر عظام, فهي فياضة بالعظات الغوالي والمواعظ القيمة , مع ما وقع فيها من الكوارث والنكبات، وما حوته من النوازل والأزمات، إلا أنه يصدق فيها قوله تعالى: ﴿لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾[16]

هذه لمحة موجزة سريعة نقف وإياكم مع دروس وعبر من هذه الغزوة المباركة التي كان لها الأثر البالغ في حياة المصطفى صلى الله عليه وسلم وحياة الصحابة وسيكون لها مثل ذلك التأثير لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. **فهيا لنعيش مع هذه الدروس العبر:**

1-أثر المعاصي في النصر والهزيمة:

في غزوة أحد ظهر أثر المعصية والفشل والتنازع في تخلف النصر عن الأمة، فبسبب معصية واحدة خالف فيها الرماة أمر النبي - صلى الله عليه وسلم-، وبسب التنازع والاختلاف حول الغنائم، ذهب النصر عن المسلمين بعد أن انعقدت أسبابه، ولاحت بوادره، فقال - سبحانه -:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [17]

2- خطورة إيثار الدنيا على الآخرة :

وهذه الغزوة تعلمنا كذلك خطورة إيثار الدنيا على الآخرة، وأن ذلك مما يفقد الأمة عون الله ونصره وتأييده، قال ابن مسعود: " ما كنت أرى أحداً من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم- يريد الدنيا حتى نزل فينا يوم أحد : ﴿ مِنْكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ﴾ "، عن أبي سعيد الخدري رشي الله عنه عن النبي

صلى الله عليه وسلم قال: «**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**»

قال ابن عباس رضي الله عنه: لما هزم الله المشركين يوم أحد، قال الرماة: (أدركوا الناس ونبي الله، لا يسبقوكم إلى الغنائم، فتكون لهم دونكم) وقال بعضهم: (لا نبرح حتى يأذن لنا النبي صلى الله عليه وسلم) فنزلت: ﴿ **مِنْكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُم مَّن يُرِيدُ الآَخِرَةَ** ﴾ [20].

وفي ذلك درس عظيم يبين أن حب الدنيا والتعلق بها قد يتسلل إلى قلوب أهل الإيمان والصلاح، وربما خفي عليهم ذلك، فآثروها على ما عند الله، مما يوجب على المرء أن يتفقد نفسه وأن يفتش في خباياها، وأن يزيل كل ما من شأنه أن يحول بينها وبين الاستجابة لأوامر الله ونواهيه.

3-سنة الله في الصراع بين الحق والباطل:

وفي غزوة أحد تأكيد لسنة الله في الصراع بين الحق والباطل، والهدى والضلال، فقد جرت سنة الله في رسله وأتباعهم أن تكون الحرب سجالاً بينهم وبين أعدائهم، فيدالوا مرة ويدال عليهم أخرى، ثم تكون لهم العاقبة في النهاية، ولئن انتفش الباطل يوماً وكان له صولات وجولات، إلا أن العاقبة للمتقين، والغلبة للمؤمنين، فدولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا.

والجنة عزيزة غالية لا تُنال إلا على جسر من المشاق والمتاعب، والنصر الرخيص السهل لا يدوم، ولا يدرك الناس قيمته، ولذلك قال الله:﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**)

5- لا بد من الأخذ بالأسباب:

لا بد أيضاً من الأخذ بأسباب النصر المادية والمعنوية مع التوكل على الله والاعتماد عليه، فقد ظاهر النبي - صلى الله عليه وسلم- بين درعين، ولبس لأْمَة الحرب، وكافح معه الصحابة، وقاتل عنه جبريل وميكائيل أشد القتال، رغم أن الله عصمه من القتل.

6- التضحية من أجل الدين:

هذا الدين لا يتحقق في واقع الحياة، ولا يثبت على هذه الأرض، ولا تعلو رايته ، ولا يتحقق منهجه بين الناس إلا بجهد من أبناء هذا الدين يسبقه ويرافقه ويعقبه توفيق من الله عز وجل.

فلابد له من علم يُنشر، ودعوة تبذل، وأموال تُنفق، ومهج وأرواح تُزهق في سبيل الله عز وجل، إنه ليس أمراً هيناً؛ إنها الرسالة العظيمة الخالدة، إنها الأمانة الكبيرة الماجدة: ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا** ﴾ ، ويخاطب الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم فيقول: ﴿**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا** ﴾ ، إنها أمانة هذا الدين والرسالة الخاتمة من

رب العالمين، الدين الذي ارتضاه الله سبحانه وتعالى للناس أجمعين، حتى يرث الله الأرض ومن عليها يوم يقوم الناس لرب العالمين.

هذه الرسالة العظيمة، وهذا الدرس الكريم نقف مع ومضات منه لنرى صورته في غزوة أحد، ولست معنياً بالوقوف مع الأحداث وترتيبها، وإنما نأخذ هذا الدرس الواضح الجلي في هذه المعركة العظيمة من معارك الإسلام الخالدة التي قادها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم برفقة الصحب الكرام الغر الميامين الأبطال الشجعان رضوان الله عليهم أجمعين.

فماذا قدمنا لديننا؟؟ وللصحابة الكرام الصُحبة والسبق والإقدام، تقطعت منهم الأشلاء، وتمزقت الأجساد، وترمل النساء، قدَّموا أرواحهم فداء لهذا الدين، حتى وصل إلينا كاملاً متمّماً، فاقدر لهم قدرهم، واشكر لهم سعيهم، وترض عنهم، فقد أحبهم ربهم، - رضي الله عنهم وأرضاهم -.

7- العاقبة للمتقين:

للحق جولة، وللباطل صولة، والعاقبة للتقوى، فلا تيأس من إصلاح المجتمع، ولا تقنط من هدايته، فقد صَبَر النبي صلى الله عليه وسلم على الأذى والجراح، حتى دخل الناس أفواجاً في دين الله، إن عواقب الأمور كلها بيد الله، فامض في الدعوة، وداوم على الدعاء، وهداية البشر بيد خالق البشر.

أبو سفيان في أُحُد يقود المشركين، وشعاره: "اعلُ هُبل"، وفي فتح مكة يقول: "لا إله إلا الله". ووحشي يقتل حمزة، ثم يُسلم ويقتل مُدعي النبوة مسيلمة الكذاب.

فاحذر على نفسك التقلب، **((فالقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، يقلبها كيف يشاء))**.واسأله دوماً دوام الثبات، والعبد وإن استغرق في العصيان، فالتوبة تحط الأوزار وإن بلغت العنان.

خالد بن الوليد يقود خيَّالة الكفر، وقُتِل على يديه فضلاء الصحابة، ولما شرح الله صدره للإسلام، أتى يبايع النبي، وقال: يا رسول الله، إني أشترط أن تُغفَر زلتي، فقال: **((يا خالد، أما علمت أن الإسلام يهدم ما قبله، وأن التوبة تجُبُّ ما قبلها))**.

فأنقذ نفسك من وحل الأوزار، وأقبل على ربك تائباً من الآثام، فالحسنات يذهبن السيئات، ولا تستنكف عن التمسك بهذا الدين، فحوله سالت الدماء.

غزوة الأحزاب (الخندق)

هذه الغزوة المباركة التي لم يحدث فيها قتال ولم تقع فيها مواجهة بين المسلمين وأعدائهم ومع ذلك كانت غزوة مميزة ميزت صفوف المسلمين وكشفت المندسين والمنافقين وأظهرت الخبث الموجود في أوساط المسلمين.

إن الشدائد والأهوال التي يمر بها المسلمون في كل وقت وحين هي الكفيلة بكشف الحقائق وإظهار المعادن وتمييز الصفوف وتبيين أهل الإيمان من أهل النفاق وأهل الحق والصدق من أهل الزيف والباطل.

ولهذا انقسم الناس عندما تكالبت الأحزاب على المسلمين إلى فريقين فريق قالوا ﴿ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: 12] وفريق ﴿ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: 22].

إن غزوة الأحزاب تتكرر في زماننا هذا وفي سنواتنا هذه التي تكالب فيها الأعداء على المسلمين وتحالف أهل الشرق والغرب على القضاء على الإسلام وأعلن يومها زعيم الصليبيين أن من ليس معنا في الحرب على الإرهاب فهو ضدنا فانقسم العالم إلى معسكرين معسكر أهل الإيمان ومعسكر أهل الشر والنفاق الذين تحالفوا مع الأعداء ووالوهم وطلبوا رضاهم وحالفوهم وقدموا لهم كل التسهيلات اللازمة من أجل القضاء على الإسلام الذي يوصمونه بالإرهاب.

إن غزوة الأحزاب تعلمنا أن نصر الله آت لا محاله وفرجه قريب ونصره واقع بلا شك وما هي إلا شدة وتزول وأيام صعاب تنتهي وتذهب فغزوة الأحزاب استمرت قرابة شهر كامل حتى تنقت الصفوف وظهر المؤمنون من المنافقين ثم جاء المدد من الله وأرسل الله على أعدائه جندياً من جنوده أرسل عليهم الريح العاتية وأنزل ملائكته تثبت قلوب المجاهدين وتزلزل قلوب الكفرة والمنافقين.

وهكذا تمر علينا الأحداث اليوم ويتأخر علينا النصر لأن النصر لا يأتي إلا إذا تنقت الصفوف وتميزت المعادن حينها يأتي نصر الله ويمدنا الله بمدده ونصره ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: 40].

وهذا معناه أن تحقيق النصر وجلبه أو تأخيره إنما هو بأيدينا فإن نصرنا الله ووالينا دينه واتجهنا إلى شريعته واقتربنا من منهجه جاءنا النصر وإن ابتعدنا عن منهج الله وتركنا شريعة الله وهجرنا كتاب الله ابتعد عنا النصر وتأخر ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: 7].

تُعلمنا غزوة الأحزاب أن الكفار مهما أعدوا من عدة لضرب المسلمين ومهما فعلوا ومهما خططوا ومهما مكروا فإن مكرهم سيرتد عليهم وحربهم ستحرقهم قبل أن تحرق عدوهم ومؤامراتهم وكيدهم سينقلب ضدهم وأسلحتهم

وعتادهم ستكون غنيمة لخصومهم وهذا ما تحقق في غزوة الاحزاب وبني قريظة خططوا وجمّعوا ومكروا وفي النهاية ولوا منهزمين مدحورين لا يلوون على شيء وأيقنوا بعدها أن نور الله لا يمكن أبداً أن ينطفئ ودينه لا يمكن أبداً أن ينتهي أو يغلب بل أعلن النبي – صلى الله عليه وسلم – أن المعركة ستتحول بعد الأحزاب من الدفاع إلى الهجوم وقال " الآن نغزوهم ولا يغزونا نحن نسير إليهم ".

ماذا استفاد الصليبيون اليوم منذ إعلان الحرب على الإرهاب؟

وماذا حققوا رغم كل الحشود الني حشدوها والمليارات والتريليونات التي أنفقوها.

إنهم أشعلوا جذوة الجهاد في العالم كله وأحيوا في المسلمين العقيدة المنسية عقيدة الولاء والبراء وزرعوا عداوتهم وحب الثأر والانتقام منهم في قلب كل مسلم غيور وخسروا آلاف الجنود والجرحى والمعوقين وأصيبوا بأزمة اقتصادية خانقة ولم يستطيعوا القضاء على المجاهدين لا في أفغانستان ولا في غيرها ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ * فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ [إبراهيم: 46، 47] ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل: 50 – 52].

إن أعداءنا يتصورون أنهم سيقضون على المسلمين إذا قتلوا قائداً من قادة المجاهدين أو سجنوا عالماً من علماء المسلمين أو ضربوا منطقة من المناطق الساخنة التي تعلن التمرد على الصليبيين أو ترغب في تحكيم شرع رب العالمين.

يظنون أنهم بهذا سينهون الدين ويستأصلون شأفة المسلمين ولكن الأيام تثبت لهم أن هذا لا يزيد المسلمين إلا صلابة وقوة ولا يزيدهم إلا عزة ورفعة فالقائد يخلفه ألف قائد والعالم عندما يطارد ويسجن يكون صوته أسمع وتأثيره أقوى من ذي قبل والمناطق التي يضربونها لا تنتهي ولا تموت ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف: 8، 9].

أيها المسلمون الموحدون : لو نظرنا في حال المسلمين في غزوة الأحزاب لوجدنا أنه حال يرثى له فالجوع يكاد يقتلهم حتى شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شدة الجوع ولا يوجد عندهم ما يسد رمقهم والحصار قد اشتد عليهم والبرد قد أصابهم ولا يوجد لديهم ما يواجهون به البرد والفتنة والانقسام وقعت في صف الجيش الإسلامي نفسه بسبب المنافقين الموجودين في أوساط الجيش.

تخيلوا – يا عباد الله – لو خرج اليوم جيش من المسلمين بهذه الصورة جيش لا يوجد لديه حتى قوت جنوده ولا ملابسهم الحربية وما يقيهم من البرد وعدد جيش العدو أكثر من عدد جيش المسلمين بأكثر من ثلاثة

أضعاف ماذا سيقول عنه المنافقون؟ وماذا سيوجهون له من النقد والسخرية؟ سيرمونه بالتهور والتسرع والطيش والتعجل في المواجهة بل سيستهزئون به ويعتبرونه جيش مغامر وساذج ومخترق وفي النهاية لن يفعلوا شيئاً ولن يحسنوا غير النقد واللوم والهدم وصدق الله سبحانه وتعالى إذ يقول عنهم ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا * لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: 19 – 21].

إن كثرة الشدائد وشدة المصاعب حينما تمر بها الأمة فإن هذا أعظم دليل على أن الفجر قد اقترب والنصر قد لاح وإنما هو مخاض عسير ثم تكون بعده الولادة المنتظرة بإذن الله.

لقد كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يبشر أصحابه في تلك الساعات الحرجة باقتراب النصر وموعد الفتح فيبشرهم بأنهم سيملكون كنوز كسرى وقيصر.

ولما زادت الشدة وعظمت الكربة بعد نقض اليهود للعهد والاتفاق الذي بينهم وبين المسلمين ومشاركتهم للأحزاب في الحرب وقيام المنافقين بالتمرد والتهرب من ساحة المعركة وقالوا ﴿ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾[الأحزاب: 13]

هنا تلثم النبي – صلى الله عليه وسلم – وتقنع واضطجع من شدة الحرج ولكنه عليه الصلاة والسلام قام مكبراً ومبشراً يقول " الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين بفتح الله ونصره.

كما أن الغزوة تعطينا درساً عظيماً في قطع العلاقات وتجنب توقيع المعاهدات مع اليهود أو إبرام الاتفاقيات معهم فإنهم قوم غدر لا عهد لهم ولا ميثاق ولا يقدّرون صلحاً ولا يحفظون حقاً ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾ [المائدة: 13] فهل يفقه هذا ويعيه من يوالي اليهود ويبرم معهم الاتفاقيات وينسق معهم لإعادة المساومات والمفاوضات كما يفعل بعض الفجرة والخونة من حكام المسلمين.

أيها الموحدون في كل مكان : في غزوة الأحزاب تأخر النبي – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه عن صلاة العصر في يوم من الأيام المباركة لهذه الغزوة العظيمة فصلاها النبي – صلى الله عليه وسلم – قرب المغرب وبعدما صلاها قال " ملأ الله قبورهم وبيوتهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس"

فأين الذين يؤخرون صلاة العصر وغيرها من الصلوات من هذا يؤخرونها عن وقتها بلا سبب وينامون عنها كل يوم وليلة لا يستحون من الله ولا يخافون منه أن يؤخرهم بسبب تأخيرهم عن الصلاة.

إذا كان رسولنا – صلى الله عليه وسلم – غضب على الكفار ودعا عليهم بهذا الدعاء الغليظ لأنهم أخروه عن الصلاة بسبب انشغالهم بصدهم ورد هجماتهم فماذا نقول لمن يؤخر العصر حتى قرب المغرب ويصلي الفجر وقد كادت الشمس أن تطلع وماذا نقول لمن لا يصليها أصلاً ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [مريم: 59] يقول النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – " مَنْ تَرَكَ صَلَاةَ الْعَصْرِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ" رواه البخاري.

ويمكن تلخيص الدروس والعبر من غزوة الاحزاب بمايلي :

1- أن اجتماع الأحزاب وأعداء الإسلام على الدين وأهله عادة ماضية في كل زمان ومكان، فلا تنقطع عداوتهم، وفي ذلك حكمة بالغة في الرجوع إلى الله، وصدق التوكل عليه، والإنابة والذل وإظهار الحاجة، وبذل الغالي لهذا الدين، قال تعالى: {يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}التوبة:32. إلا أن الله –عز وجل– حامي دينه، وناصر عباده المؤمنين، قال ابن القيم –رحمه الله–: "فمن ظن بأنه لا ينصر رسوله، ولا يتم أمره، ولا يؤيده ويؤيد حزبه، ويعليهم ويظفرهم بأعدائه، ويظهرهم عليهم، وأنه لا ينصر دينه وكتابه، وأنه يديل الشرك على التوحيد والباطل على الحق إدالة مستقرة، يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالاً لا يقوم بعده أبداً، فقد ظن بالله ظن السوء، ونسبه إلى خلاف ما يليق بكماله وجلاله وصفاته ونعوته، فإن حمده وعزته وحكمته وإلهيته تأبى ذلك، وتأبى أن يذل حزبه وجنده، وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين به، العادلين به، فمن ظن به ذلك فما عرفه، ولا عرف أسماءه، ولا عرف صفاته وكماله" 1 وعلى مر العصور وتقلب الدهور قول الصادق: (بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ وَالرِّفْعَةِ وَالدِّينِ وَالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ) لكن الأمر مشروط بشروطه، ومقيد بقيوده: {إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ}محمد:173.

2- ومن الدروس أن الله –عز وجل– يحفظ عباده المؤمنين في معاركهم ويمدهم بجيش من عنده ولا يضيعهم، كما أنزل عليهم الملائكة يوم بدر، وأرسل الريح في غزوة الأحزاب. كما قال: {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}الروم:47 وقال:{إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا} الحج:38. وهنا في الأحزاب قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا}(9) سورة الأحزاب.

3- ومن الدروس أيضاً أن المؤمن لا تزيده الكروب والشدائد إلا إيماناً ويقيناً وصلابة بخلاف الذين في قلوبهم مرض، وفي ظل هذه الغزوة، وهذا الجو الشديد، والكرب العظيم، انقسم الناس إلى قسمين: قسم آمن بوعد الله ونصره، كما قال تعالى: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً}الأحزاب:22.

وأما المنافقون والذين في قلوبهم مرض فقد زاغت قلوبهم، عندما رأوا جموع الكفار وعدتهم، كما صور ذلك سبحانه وتعالى: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً}الأحزاب:13.

وقال المنافقون: "كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط"4 وتنصلوا من الجهاد وهربوا منه.{وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً}الأحزاب:113.

4- ومن الدروس المستفادة من هذه الغزوة أن على القائد أن يستشير أصحابه، ويأخذ آراءهم، كما استشار النبي -صلى الله عليه وسلم- أصحابه، فأشار سلمان الفارسي -رضي الله عنه- وقال: يا رسول الله: "إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا". فاستحسن رسول الله هذا الرأي منه وعمل به، وكان مما لم تعرفه العرب.

5- ومن الدروس المستفادة أنه يجب على المسلمين إعداد العدة، واتخاذ وسائل القوة الممكنة مهما كان مصدرها، لأن الحكمة ضالة المؤمن، فحيثما وجدها أخذها، فحفر الخندق يدخل في مفهوم القوة لقوله تعالى: {وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ}(60) سورة الأنفال).

6- ومن الدروس أن على المسلم الاستسلام لله ورسوله فإنه سبب للثبات عند الشدائد، كما جاء في سورة الأحزاب: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِيناً} آية 36 الأحزاب. وهذه الآية تؤكد على هذا المعنى وهو الاستسلام لله تعالى والامتثال لأوامره وأوامر رسوله، ولو لم يعرف المسلم الحكمة من وراء ذلك، فهو عبد لله وطاعته لازمة وواجبة.

7- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أعطى مثلاً حياً على رأفته بالمؤمنين، حيث شاركهم في حفر الخندق، ويوم أشركهم معه في طعام جابر، ولم يستأثر به.

و هذا مصداقاً لقول الله تعالى: {لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}(128) سورة التوبة. فهو -صلى الله عليه وسلم- أرحم بهم، وأشد رفقاً حتى في أحلك الظروف، وأشد المواقف.

8- أن المعجزات الكثيرة التي أجراها الله على يد نبيه محمد -صلى الله عليه وسلم- في هذه الغزوة، سواء التي كانت في حفر الخندق، أو تكثير طعام جابر، أو الرياح التي كانت عذاباً من الله على المشركين، لهي من تأييد الله لرسوله والمؤمنين، ولإقامة الحجة على أعداء الدين.

9- ومن الدروس مشروعية قضاء الفائتة فإن المشركين لما شغلوا الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه عن صلاة، صلوها قضاء بعد المغرب.

10- ومن الدروس أن النصر في المعارك لا يكون بكثرة العدد، ووفرة السلاح، وإنما يكون بقوة الروح المعنوية لدى الجيش، وقد كان الجيش الإسلامي في جميع معاركه، يمثل العقيدة النقية والإيمان المتقد، والفرح بالاستشهاد، والرغبة في ثواب الله وجنته، كما يمثل الفرحة من الانعتاق من الضلال، والفرقة والفساد، بينما كان جيش المشركين يمثل فساد العقيدة، وتفسخ الأخلاق، وتفكك الروابط الاجتماعية، والانغماس في الملذات، والعصبية العمياء للتقاليد البالية، والآباء الماضين، والآلهة المزيفة.

11- ومن الدروس أيضاً أن الخدعة في حرب الأعداء مشروعة، إذا كانت تؤدي إلى النصر، وأن كل طريق يؤدي إلى النصر وإلى الإقلال من سفك الدماء مقبول في نظر الإسلام، ما عدا الغدر والخيانة. ويأخذ هذا مما طلبه الرسول -صلى الله عليه وسلم- من نُعيم بن مسعود، أن يخذِّل بين الأحزاب ما استطاع في غزوة الأحزاب.

وهذا من حكمته السياسية والعسكرية -صلى الله عليه وسلم-، وهو لا ينافي مبادئ الأخلاق الإسلامية، فإن المصلحة في الإقلال من عدد ضحايا الحروب مصلحة إنسانية.

والمصلحة في انهزام الشر والكفر والفتنة مصلحة إنسانية وأخلاقية، فاللجوء إلى الخدعة في المعارك يلتقي مع الأخلاق الإنسانية التي ترى في الحروب شراً كبيراً، فإذا اقتضت الضرورة قيامها، كان من الواجب إنهاؤها عن أي طريق كان، لأن الضرورة تقدر بقدرها، والله لم يشرع القتال إلا لحماية دين أو أمة أو أرض، فالخدعة مع الأعداء بما يؤدي إلى هزيمتهم، تعجيل بانتصار الحق الذي يحاربه أولئك المبطلون.

ولذلك أثر عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- في هذه الغزوة قوله لعروة بن مسعود:(**الحرب خدعة**)وهذا مبدأ مسلم به في جميع الشرائع والقوانين.

12- وفي تقدم النبي -صلى الله عليه وسلم- الصفوف في هذه المعركة، وفي كل معركة، وخوضه غمارها معهم إلا فيما يشير به أصحابه، دليل على أن مكان القيادة لا يحتله إلا الشجاع المتثبت، وأن الجبناء خائري القوى لا يصلحون لرئاسة الشعوب، ولا لقيادة الجيوش، ولا لزعامة حركات الإصلاح، ودعوات الخير، فشجاعة القائد والداعية بفعله وعمله يفيد في جنوده وأنصاره في إثارة حماسهم، واندفاعهم ما لا يفيده ألف خطاب حماسي يلقونه على الجماهير.

ومن عادة الجنود والأنصار أن يستمدوا قوتهم من قوة قائدهم ورائدهم، فإذا جبن في مواقف اللقاء، وضعف في مواطن الشدة، أضر بالقضية التي يحمل لواءها ضرراً بالغ.

13- ومن الدروس المستفادة أن المنح تخرج من رحم المحن، فهذا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في هذا الظرف القاسي والشديد، والصحابة في حصار وجوع، وخوف شديد يضرب الصخرة، ويبشرهم بكنوز كسرى،

ودخول المدائن، وفتح اليمن، الله أكبر! إن زراعة الأمل في مثل هذا الظرف ليدل على مدى ثقة القائد بوعد الله ونصره ورباطة الجأش والطمأنينة الكبيرة.

هذا ما تيسر ذكره من الدروس والعبر المستفادة من غزوة الأحزاب، نسأل الله تعالى أن يوفقنا لما يحب ويرضاه.

صلح الحديبية

صلح الحديبية عهد واتفاق، تم بين المسلمين وقريش في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة قرب موضع يقال له الحديبية قبيل مكة, ففي ذلك العام رأى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في منامه أنه يدخل هو وأصحابه المسجد الحرام، وأنهم يطوفون بالبيت، فأخبر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أصحابه بذلك، ففرحوا فرحا شديدا، فرؤيا الأنبياء حق، وقد اشتد بهم الحنين إلى تأدية النسك والطواف بالكعبة ودخول مكة، موطنهم الأول ومسقط رأسهم .

خرج النبي صلى الله عليه وسلم ومعه زوجه أم سلمة في ألف وأربعمائة مسلم، متجهين إلى مكة لقضاء أول عمرة لهم بعد الهجرة، وحملوا معهم السلاح توقعا لشر قريش، فلما وصل إلى ذي الحليفة أهل مُحْرما هو ومن معه، وبعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بُسر بن سفيان إلى مكة ليأتيه بأخبار قريش وردود أفعالهم, وحين وصل المسلمون إلى عسفان(مكان بين مكة والمدينة)، جاءهم بسر بأخبار استعدادات قريش لصد ومنع المسلمين من دخول مكة..

فاستشار النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه ، فأشار أبو بكر رضي الله عنه بالتوجه إلى مكة لأداء العمرة والطواف بالبيت، وقال: (فمن صدنا عنه قاتلناه، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : امضوا على اسم الله) (البخاري).

وصلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأصحابه في عسفان صلاة الخوف، ثم سلك بهم طريقا وعرة، متجنبا الاصطدام بخالد بن الوليد وكان لا زال على الشرك حيث خرج من مكة بجنود ليمنع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من دخولها.. فمضى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه أصحابه باتجاه مكة حتى إذا اقتربوا من الحديبية بركت ناقته، فقالوا: خلأت القصواء(امتنعت عن المشي)؟، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (ما خلأت القصواء وما ذلك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل) ثم قال ـ صلى الله عليه وسلم : (والذي نفسي بيده، لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها) (البخاري)..

فلما نزل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحديبية أرسل عثمان رضي الله عنه إلى قريش وقال له: أخبرهم أنا لم نأت لقتال، وإنما جئنا عماراً، وادعهم إلى الإسلام، وأمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات، فيبشرهم بالفتح، وأن الله عز وجل مظهر دينه بمكة..

فانطلق عثمان فمر على قريش، فقالوا: إلى أين؟، فقال : بعثني رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، ويخبركم : أنه لم يأت لقتال ، وإنما جئنا عماراً..

ولكن عثمان احتبسته قريش فتأخر في الرجوع إلى المسلمين ، فخاف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليه، وخاصة بعد أن شاع أنه قد قتل، فدعا إلى البيعة، فتبادروا إليه، وهو تحت الشجرة ، فبايعوه على أن لا يفروا، وهذه هي بيعة الرضوان التي نزل فيها قول الله تعالى: { لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً } (الفتح:18).

وأرسلت قريش عروة بن مسعود للتفاوض مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ثم أرسلت سهيل بن عمرو لعقد الصلح ، فلما رآه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسلم قال : قد سهل لكم أمركم، أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل فتكلم سهيل طويلاً ثم اتفقا على قواعد الصلح.

وقد روى الإمام أحمد أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدأ يُمْلي شروط الصلح، و علي بن أبي طالب رضي الله عنه يكتب، فأملاه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل : أما الرحمن فوالله لا ندري ما هو ولكن اكتب باسمك اللهم، فأمر رسول الله– صلى الله عليه وسلم – عليًّا فكتبها كذلك، ثم أملى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله، فقال سهيل : لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله، فوافق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال: والله ، إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب محمد بن عبد الله).

وأسفرت المفاوضات عن اتفاق سُمِّيَ في التاريخ والسيرة صلحا، يقضي بأن تكون هناك هدنة بين الطرفين لمدة عشر سنوات، وأن يرجع المسلمون إلى المدينة هذا العام فلا يقضوا العمرة إلا العام القادم، وأن يرد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من يأتي إليه من قريش مسلما دون علم أهله، وألا ترد قريش من يأتيها مرتدا، وأن من أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في عهد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من غير قريش دخل فيه..

وبينما هم كذلك إذ دخل عليهم أبو جندل بن سهيل بن عمرو في قيوده وألقى بنفسه بين المسلمين، فقال سهيل : هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إلي، فأعاده النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ للمشركين، فقال أبو جندل : يا معشر المسلمين أأُرَد إلى المشركين يفتنونني في ديني، فقال له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ :(إنا

عقدنا بيننا وبين القوم عهدا، وإنا لا نغدر بهم)، ثم طمأنه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلا:(يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك فرجا ومخرجا) (أحمد)..

وافق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على شروط المعاهدة، التي بدا للبعض أن فيها إجحافا وذلاً للمسلمين، ومنهم عمر ـ رضي الله عنه الذي قال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟، قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلى، فقال: فَلِمَ نعط الدنية في ديننا إذاً ؟) (البخاري) .

لكن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان مدركا وموقنا أن هذا الصلح سيكون فاتحة خير وبركة على المسلمين بعد ذلك ثم انصرف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قاصدا المدينة..

هذا هو ملخص صلح الحديبية ومن خلال هذا الصلح وأحداثه، يمكن استخلاص العديد من الدروس والحِكَم، ومنها:

وجوب طاعة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والانقياد والتسليم لأمره، فعمر رضي الله عنه ـ وبعض الصحابة كرهوا هذا الصلح، ورأوا في شروطه الظلم والإجحاف بالمسلمين، لكنهم ندموا على ذلك، وظلت تلك الحادثة درسا لهم فيما استقبلوا من حياتهم، فكان سهل بن حنيف رضي الله عنه ـ يقول: " اتهموا رأيكم، رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لرددته "..

وبقي عمر رضي الله عنه زمنا طويلا متخوفا أن ينزل الله به عقابا لما قاله يوم الحديبية، وكان يقول: فما زلت أصوم وأتصدق وأعتق من الذي صنعت، مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ وهو القائل رضي الله عنه ـ بعد ذلك وهو يقبل الحجر الأسود : (إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت النبي – صلى الله عليه وسلم – يقبلك ما قبلتك)(البخاري).

فتعلم الصحابة من صلح الحديبية وجوب طاعة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والانقياد لأمره وإن خالف ذلك العقول والنفوس، ففي طاعته ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصلاح المتضمن لسعادة الدنيا والآخرة، وإن قصر العقل عن إدراك غايته وعاقبة أمره ..

وفي هذا الصلح المبارك ظهرت أهمية الشورى، ومكانة المرأة في الإسلام، وأهمية القدوة العملية في موقف واحد.

روى الإمام أحمد بسنده من طريق المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم – رضي الله عنهما – قصة صلح الحديبية في حديث طويل، ذكر فيه أنه لما تم الصلح بين النبي– صلى الله عليه وسلم – ومشركي قريش قام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال: (يا أيها الناس انحروا واحلقوا)، قال: فما قام أحد، قال: ثم عاد بمثلها، فما قام رجل حتى عاد بمثلها، فما قام رجل، فرجع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فدخل على أم سلمة فقال: (يا أم سلمة ! ما شأن الناس؟ قالت: يا رسول الله قد دخلهم ما قد رأيت، فلا تكلمن منهم إنساناً،

واعمد إلى هديك حيث كان فانحره، واحلق فلو قد فعلت ذلك، فعل الناس ذلك، فخرج رسول الله– صلى الله عليه وسلم –لا يكلم أحدا حتى أتى هديه فنحره ثم جلس فحلق، فقام الناس ينحرون ويحلقون).

فكان رأي أم سلمة رضي الله عنها رأياً موفقا ومشورة مباركة، وفي ذلك دليل على استحسان مشاورة المرأة الفاضلة مادامت ذات فكر صائب ورأي سديد، كما أنه لا فرق في الإسلام بين أن تأتي المشورة من رجل أو امرأة، طالما أنها مشورة صائبة، فالشورى سلوك ينظم الحياة والأسرة في كل شؤونها، قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } (الشورى:38).

وفي قبول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمشورة زوجته أم سلمة تكريم للمرأة، التي يزعم أعداء الإسلام أن الإسلام لم يعطها حقها وتجاهل وجودها، وهل هناك اعتراف واحترام لرأي المرأة أكثر من أن تشير على نبي مرسل، ويعمل النبي – صلى الله عليه وسلم – بمشورتها لحل مشكلة واجهته في حياته .

وفي هذا الموقف أيضا التأكيد على أهمية القدوة العملية، فقد دعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى أمر وكرره، ومع ذلك لم يستجب أحد لدعوته، فلما أقدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الخطوة العملية التي أشارت بها أم سلمة رضي الله عنها تحقق المراد، فالقدوة العملية أجدى وأنفع، خاصة في مثل هذه المواقف ..

ومن الفوائد الهامة من صلح الحديبية أن المشركين وأهل الفجور، إذا طلبوا أمراً يعظمون فيه حرمة من حرمات الله تعالى، أجيبوا إليه وأعطوه وأعينوا عليه، فيعاونون على ما فيه تعظيم حرمات الله تعالى، لا على كفرهم وبغيهم، ويمنعون مما سوى ذلك، قال الزهري : وذلك لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله، إلا أعطيتهم إياها) .

وظهر في صلح الحديبية مدى حب الصحابة للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، يعبر عن ذلك عروة في قوله لقومه: (أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي ، والله ما رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ محمدا، والله ما تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيما له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها) (البخاري).

ومن الحكم الباهرة من صلح الحديبية أنه كان بابا ومفتاحا لفتح مكة ولئن لم ينتبه المسلمون لهذا في حينه، فذلك لأن المستقبل غائب عنهم، فقد اختلط المسلمون بالكفار بعد عقد الصلح ـ وهم في أمان، ودعوهم إلى الله، وأسمعوهم القرآن، ولم يُكلم أحد بالإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه، ودخل في سنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك بل أكثر .. فقد خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الحديبية في ألف وأربعمائة، ثم

خرج عام فتح مكة بعد عامين في عشرة آلاف، وهذا ما بشر به رسول الله . صلى الله عليه وسلم . أصحابه أثناء رجوعه إلى المدينة بعد عقد المعاهدة والصلح، حينما قال: (أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس. ثم قرأ: { إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً } (الفتح:1))(البخاري) .

قال ابن مسعود . رضي الله عنه .: " إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية " .

إن عرض الإسلام والدعوة إليه في جو من الهدوء والأمان، وحرية الحوار بالحجة والكلمة الطيبة، كان له أبلغ الأثر، وذلك لأن الحق له قوة يظهر بها على الباطل، فإذا أحسن العرض والدعوة إليه، واختير القول والوقت المناسب، وكان الداعية عالما بما يدعو له، حكيما في دعوته، كانت النتائج أعظم ..

لقد كان صلح الحديبية غنيا بالدروس والحِكَم، التي ينبغي الوقوف معها والاستفادة منها في واقعنا ومستقبلنا كأفراد ومجتمعات ...

وقد جاءت النتائجُ كما رتب لها الرسول - صلى الله عليه وسلم - وكان صلح الحديبية فتحًا مبينًا كما بيَّن ربنا - تعالى -: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ [الفتح: 1]، وتحققت نتائج صلح الحديبية التي كانت في صالح المؤمنين، والتي من أهمها:

1- اعتراف قريش في هذه المعاهدة بكيان الدولة المسلمة؛ فالمعاهدة دائمًا لا تكون إلا بين نِدَّين، وكان لهذا الاعتراف أثرُه في نفوس القبائل المتأثرة بموقف قريش؛ حيث كانوا يرون أنها الإمام والقدوة.

2- دخلت المهابة في قلوب المشركين والمنافقين، وتيقَّن الكثير منهم من غلبة الإسلام، وقد تجلَّت بعض مظاهر ذلك في مبادرة كثير منهم إلى الإسلام، مثل: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، كما تجلت في مسارعة الأعراب المجاورين للمدينة إلى الاعتذار عن تخلُّفهم.

3- أعطت الهدنة فرصةً لنشر الإسلام، وتعريف الناس به؛ ممَّا أدى إلى دخول كثيرٍ من القبائل فيه؛ راجع: في ظلال القرآن، والسيرة النبوية لابن هشام (351/3).

4- أمِن المسلمون جانب قريش، فحولوا ثقلهم إلى اليهود ومَن كان يناوئهم من القبائل الأخرى، فكانت غزوةُ خيبرَ بعد صُلح الحديبية.

5- مفاوضات الصلح جعَلت حلفاء قريش يفقهون موقف المسلمين ويميلون إليه، فهذا الحليس بن علقمة عندما رأى المسلمين يُلَبُّون رجَع إلى أصحابه قال: لقد رأيت البُدن قد قُلِّدت وأشعرت، فما أرى أن يُصَدوا عن البيت.

6- مكَّن صلحُ الحديبية النبيَّ - صلى الله عليه وسلم - من تجهيز غزوة مؤتة، فكانت خطوةً جديدة لنقل الدعوة الإسلامية بأسلوب آخر خارج الجزيرة العربية.

7- ساعد صلحُ الحديبية النبيَّ - صلى الله عليه وسلم - على إرسالِ رسائل إلى ملوك الفرس والروم والقبط يدعوهم إلى الإسلام.

8- كان صلحُ الحديبية سببًا ومقدمة لفتح مكة: يقول ابن القيم: كانت الهدنةُ مقدِّمةً بين يدي الفتح الأعظم، الذي أعز اللهُ به رسوله وجندَه، ودخل الناس به في دين الله أفواجًا، فكانت هذه الهدنة بابًا له ومفتاحًا ومؤذنًا بين يديه، وهذه عادة الله في الأمور العظام التي يقضيها قدرًا وشرعًا أن يوطِّئَ لها بين يديها بمقدِّمات وتوطيئات تؤذنُ لها وتدل عليها؛ (انظر: السيرة النبوية لابن هشام، زاد المعاد لابن القيم).

غزوة خيبر

كانت "خيبر" مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع، على بُعد ثمانين ميلاً من المدينة في جهة الشمال.

سبب الغزوة:

لما اطمأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أقوى أجنحة الأحزاب الثلاثة، وهو قريش، وأَمِن منه تمامًا بعد صلح الحديبية، أراد أن يحاسب الجَنَاحين الباقيين - اليهود وقبائل نجد - حتى يتم الأمن والسلام، ويسود الهدوء في المنطقة، ويفرغ المسلمون من الصراع الدامي المتواصل إلى تبليغ رسالة الله والدعوة إليه.

ولما كانت "خيبر" هي وكر الدس والتآمر، ومركز الاستفزازات العسكرية، ومعدن التحرشات وإثارة الحروب، كانت هي الجديرة بالتفات المسلمين أولاً.

أما كون "خيبر" بهذه الصفة، فلا ننسَ أن أهل "خيبر" هم الذين حزَّبوا الأحزاب ضد المسلمين، وأثاروا بني قُرَيظة على الغدر والخيانة، ثم أخذوا في الاتصالات بالمنافقين - الطابور الخامس في المجتمع الإسلامي - وبغطفان وأعراب البادية "الجناح الثالث من الأحزاب"، وكانوا هم أنفسهم يتهيؤون للقتال، فألقوا المسلمين بإجراءاتهم هذه في محن متواصلة، حتى وضعوا خطة لاغتيال النبي - صلى الله عليه وسلم - وإزاء ذلك اضطر المسلمون إلى بعوث متواصلة، وإلى الفتك برأس هؤلاء المتآمرين؛ مثل: سلام بن أبي الحُقَيْق، وأسِير بن زارم، ولكن الواجب على المسلمين إزاء هؤلاء اليهود كان أكبر من ذلك، وإنما أبطؤوا في القيام بهذا الواجب؛ لأن قوةً أكبرَ وأقوى وألدَّ وأعندَ منهم - وهي قريش - كانت مجابهة للمسلمين، فلما انتهت هذه المجابهة صفا الجو لمحاسبة هؤلاء المجرمين، واقترب لهم يوم الحساب.

الخروج إلى "خيبر":

قال ابن إسحاق: "أقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة حين رجع من الحديبية ذا الحجة وبعض المحرم، ثم خرج في بقية المحرم إلى "خيبر".

قال المفسرون:

إن "خيبر" كانت وعدًا وعدها الله – تعالى – بقوله: ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ [الفتح: 20]؛ يعني: صلح الحديبية، وبالمغانم الكثيرة "خيبر".

أدى النبي صلى الله عليه وسلم الأمانة وبلغ الرسالة وجاهد في سبيل الله، لنشر الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية وغيرها .. فليست الأمة الإسلامية جمعا من الناس تعيش بلا غاية، كلا، فالمسلمون أصحاب عقيدة تحدد صلتهم بالله، وتوجه سيرهم في الحياة، وتنظم شئونهم في الداخل والخارج، وفي السلم والحرب ..

فغزا صلى الله عليه وسلم تسع عشرة غزوة، ومن هذه الغزوات الهامة غزوة خيبر التي كان فيها عز ونصر المؤمنين، وذل وهوان اليهود، الذين عاندوا واستكبروا عن قبول دعوة الحق والدخول في دين الإسلام، وغدروا وخانوا . كعادتهم .، وكانت قلوبهم وصدورهم مليئة بأحقادهم ضد الإسلام والمسلمين منذ عهد النبي . صلى الله عليه وسلم . وإلى أيامنا هذه .

لم يُظهر يهود خيبر العداء للمسلمين حتى نزل فيهم زعماء بني النضير من اليهود .، الذي أثر في نفوسهم إجلاؤهم عن ديارهم، ولم يكن الإجلاء كافياً لكسر شوكتهم، فقد غادروا المدينة ومعهم النساء والأبناء والأموال ، وكان من أبرز زعماء بني النضير الذين نزلوا في خيبر سلاَّم بن أبي الحقيق وكنانة بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب، فلما نزلوا بخيبر دان لهم أهلها، وكان تزَّعُم هؤلاء ليهود خيبر كافياً في جرهم إلى الصراع مع المسلمين، فقد كان يدفعهم حقد دفين ورغبة قوية في العودة إلى ديارهم داخل المدينة ..

وقد تفرغ المسلمون بعد صلح الحديبية لتصفية خطر يهود خيبر الذي أصبح يهدد أمن المسلمين، ولقد تضمنت سورة الفتح التي نزلت بعد الحديبية وعداً إلهياً بفتح خيبر وحيازة أموالها غنيمة، قال الله تعالى: { لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا . وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا . وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا } (سورة الفتح الآيات 18 : 21) .

سار الجيش الإسلامي إلى خيبر بروح إيمانية عالية على الرغم من علمهم بمنعة حصون خيبر، وشدة بأس رجالها وعتادها الحربي، وكانوا يكبرون ويهللون بأصوات مرتفعة، فطلب منهم النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يرفقوا بأنفسهم: قائلاً: (أيها الناس تدعون سميعاً قريباً وهو معكم)(البخاري).

وكان سيره – صلى الله عليه وسلم – بالجنود ليلاً، فقد قال سلمة بن الأكوع – رضي الله عنه . : خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى خيبر، فسرنا ليلا، فقال رجل من القوم، لعامر : يا عامر ألا تسمعنا من هنيهاتك، وكان عامر رجلا شاعرا، فنزل يحدو بالقوم، يقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا   ولا تصدقنا ولا صلينا

فاغفر فداء لك ما اتقينا وثبت الأقدام إن لاقينا

وألقين سكينة علينا إنا إذا صيح بنا أبينا

وبالصياح عولوا علينا

فقال رسول الله . صلى الله عليه وسلم .: (من هذا السائق؟ قالوا: عامر بن الأكوع ، قال: يرحمه الله)(البخاري)..

ولما أدرك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الليل أمر الجيش بالنوم على مشارف خيبر، ثم استيقظوا مبكرين، وضربوا خيامهم ومعسكرهم بوادي الرجيع، وهو وادي يقع بين خيبر وغطفان، حتى يقطعوا المدد عن يهود خيبر من قبيلة غطفان وهذا من حكمته . صلى الله عليه وسلم . ..

عن أنس رضي الله عنه . : (أن النبي . صلى الله عليه و سلم . خرج إلى خيبر فجاءها ليلا، وكان إذا جاء قوما بليل لا يغير عليهم حتى يصبح، فلما أصبح خرجت يهود بمساحيهم ومكاتلهم(آلات زراعية)، فلما رأوه قالوا محمد والله، محمد والخميس(الجيش) . فقال النبي صلى الله عليه و سلم .: الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين)(البخاري) ..

هرب اليهود إلى حصونهم وحاصرهم المسلمون، وأخذوا في فتح حصونهم واحداً تلو الآخر، وكان أول ما سقط من حصونهم ناعم والصعب بمنطقة النطاة، وأبى النزار بمطقة الشق، وكانت هاتان المنطقتان في الشمال الشرقي من خيبر، ثم حصن القموص المنيع في منطقة الكتيبة، وهو حصن ابن أبي الحقيق، ثم أسقطوا حصني منطقة الوطيح والسلالم .

وقد واجه المسلمون مقاومة شديدة وصعوبة كبيرة عند فتح بعض هذه الحصون، منها حصن ناعم الذي استغرق فتحه عشرة أيام، واستشهد تحته محمود بن مسلمة الأنصاري، وقد حمل راية المسلمين عند حصاره أبو بكر الصديق ، ولم يفتح الله عليه، وعندما جهد الناس، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إنه سيدفع اللواء غداً إلى رجل يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله، لا يرجع حتى يفتح له، فطابت نفوس المسلمين، فلما صلى فجر اليوم الثالث دعا علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – ودفع إليه اللواء فحمله فتم فتح الحصن على يديه ..

وكان علي رضي الله عنه يشتكي من رمد في عينيه، فبصق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في عينيه ودعا له فبرئ، وأوصاه صلى الله عليه وسلم بأن يدعو اليهود إلى الإسلام قبل أن يداهمهم، وقال له : (فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن تكون لك حُمْر النَّعَم) (مسلم). وعندما سأله علي : يا رسول

الله على ماذا أقاتل الناس؟ قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله) (مسلم).

وعندما حاصر المسلمون هذا الحصن برز لهم أحد أبطالهم وهو مرحب، وكان سبباً في استشهاد عامر بن الأكوع ، ثم بارزه علي رضي الله عنه فقتله، مما أثر سلبياً في معنويات اليهود ومن ثم هزيمتهم ثم توجه المسلمون إلى حصن الصَّعْب بن مُعاذ بعد فتح حصن ناعم، وأبلى حامل رايتهم الحباب بن المنذر بلاء حسناً حتى افتتحوه بعد ثلاثة أيام، ووجدوا فيه الكثير من الطعام والمتاع، بعد أن كانوا في ضائقة من قلة الطعام، ثم توجهوا بعده إلى حصن قلعة الزبير الذي اجتمع فيه الفارون من حصن ناعم والصعب وبقية ما فُتِح من حصون يهود، فحاصروه وقطعوا عنه مجرى الماء الذي يغذيه، فاضطروهم إلى النزول للقتال، فهزموهم بعد ثلاثة أيام، وبذلك تمت السيطرة على آخر حصون منطقة النَّطاة التي كان فيها أشد اليهود ..

ثم توجه المسلمون إلى حصون منطقة الشِّق فاقتحموها واحدا تلو الآخر، وفر بعض من فيها، وتجمعوا في حصن القَمُوص المنيع وحصن الوطيح وحصن السُّلاَلِم، فحاصرهم المسلمون لمدة أربعة عشر يوماً حتى طلبوا الصلح . وسارع أهل فدك في شمال خيبر إلى طلب الصلح وأن يحقن دماءهم، وبذلوا له الأموال فوافق على طلبهم .. وبذلك تساقطت سائر الحصون اليهودية أمام قوات المسلمين ..

دروس وعبر من غزوة خيبر :

لقد أظهرت غزوة خيبر حقيقة ثابتة وهي أن اليهود على مر التاريخ والعصور ومنذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا مصدر خطر داهم على الإسلام والمسلمين، فهم قوم خيانة وغدر، وينقضون العهود والمواثيق، وبحقدهم وكفرهم قتلوا عددا من الأنبياء، وما زالوا إلى أيامنا هذه مصدر خطر كبير وشر مستطير ينبغي التنبه له ومواجهته ..

ومن أهم ما ينبغي أن نعتبره ونستفيد منه من غزوة خيبر جبن اليهود وضعفهم، وأن النصر من عند الله، كما قال الله تعالى: { وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ }(آل عمران: من الآية126)، فخيبر عبارة عن أرض واسعة ذات واحات خصبة يكثر فيها النخيل، وتضم حصونا منيعة لليهود، مقسمة إلى ثلاث مناطق قتالية محصنة تحصينا شديدا ..

ومع كل هذه القوة الظاهرة فقد كان اليهود جبناء أثناء المعارك، لا يحاربون إلا من داخل حصونهم ومن وراء الجدران، وصدق الله تعالى حين وصفهم بقوله: { لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ

بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ } (الحشر:14)، وقد استشهد من المسلمين خلال فتح خيبر عشرون، في حين بلغ عدد قتلى اليهود ثلاثة وتسعين . مع قوة حصونهم ومقاتلتهم من خلفها .، في حين كان المسلمون يقاتلون في أرض مكشوفة بلا حواجز أو سواتر ..

ومما ينبغي أن يسترعي انتباهنا كذلك في غزوة خيبر ما حدث فيها من معجزات، أيد لله بها رسوله . صلى الله عليه وسلم .، وشهدت بصدقه فيما جاء به، وأكدت حفظ الله له ..

وقد ظهر ذلك في تفل النبي صلى الله عليه وسلم في عين علي رضي الله عنه وقد كان يشتكي من رمد في عينيه فبرأت حتى كأنه لم يكن به وجع .. وكذلك في وحي الله إلى نبيه صلى الله عليه وسلم أمر الشاة المسمومة التي أهدتها إليه اليهودية وأرادت قتله ..

فعن سهل بن سعد رضي الله عنه .: (أن رسول الله . صلى الله عليه و سلم . قال: لأعطين الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه قال: فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله . صلى الله عليه و سلم . كلهم يرجو أن يُعطاها، فقال: أين علي بن أبي طالب ؟ فقالوا: يشتكي من عينيه يا رسول الله، قال: فأرسلوا إليه فأتوني به، فلما جاء بصق في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع ..) (البخاري)..

وذكر ابن هشام في سيرته: " أن زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم أهدت للنبي صلى الله عليه وسلم شاة مصلية، وقد سألت أي عضو من الشاة أحب إليه فقيل لها الذراع فأكثرت فيه من السم، ثم سمت سائر الشاة ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يديه تناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها، ومعه بشر بن البراء بن معرور قد أخذ منها كما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم .، فأما بشر فأساغها، وأما رسول الله . صلى الله عليه وسلم . فلفظها، ثم قال: إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم، ثم دعا بها فاعترفت، فقال: ما حملك على ذلك؟ قالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت إن كان ملكا استرحت منه وإن كان نبيا فسيُخْبر.." ..

لقد أحدث فتح خيبر دويّاً هائلاً في الجزيرة العربية بين مختلف القبائل، وقد أصيبت قريش بالغيظ إذ لم تكن تتوقع ذلك، وهي تعلم مدى حصانة قلاع يهود خيبر، وكثرة مقاتليهم ووفرة سلاحهم، أما القبائل العربية الأخرى المناصرة لقريش فقد أدهشها خبر هزيمة يهود خيبر وخذلها انتصار المسلمين الساحق، ولذلك فإنها جنحت إلى مسالمة المسلمين وموادعتهم بعد أن أدركت عدم جدوى استمرارها في عدائهم، مما فتح الباب واسعاً لنشر الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية، بعد أن تعززت مكانة المسلمين في أعين أعدائهم إلى جانب ما تحقق لهم من خير وتعزيز لوضعهم الاقتصادي ..

تمر السنون والأعوام وتظل غزوات النبي . صلى الله عليه وسلم . عامة ومع اليهود خاصة نبراسا وهاديا يضيء لنا الطريق في تعاملنا مع أعداء الأمس واليوم والغد من اليهود وغيرهم ..

غـزوة مؤتـة

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الحارث بن عمير الأزدي رسولاً إلى ملك بصرى من أرض الشام يدعوه إلى الإسلام ، فما كان من ملك بصرى إلا أن قتل رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم الناس للخروج ومقاتلة الروم ، فسرعان ما اجتمع عند النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة آلاف مقاتل ، فعقد الراية لثلاثة منهم وجعل إمرتهم بالتناوب ، فقال صلى الله عليه وسلم : (إن أصيب زيد بن حارثة فجعفر بن أبي طالب فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة) رواه البخاري ومسلم ، فتجهز الناس وخرجوا ، وكان ذلك يوم الجمعة من السنة الثامنة للهجرة النبوية ، وودعهم المسلمون قائلين : " صحبكم الله ، ودفع عنكم ، وردكم إلينا صالحين ، فقال عبد الله بن رواحة

لكنني أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرع تقذف الزبدا

أو طعنة بيدي حران مجهزة بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقال إذا مروا على جدثي يا أرشد الله من غاز وقد رشدا

وسار المسلمون حتى نزلوا معانا – اسم قرية – من أرض الشام ، فبلغهم أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم ، وانضم إليه مائة ألف أخرى من القبائل العربية الموالية له كلخم ، وجذام ، وبلقين ، وبهراء ، فاجتمع لهرقل مائتي ألف مقاتل ، فعقد المسلمون مجلسا للتشاور ، فقال بعضهم : نكتب للنبي صلى الله عليه وسلم نخبره بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له ، فقام عبد الله بن رواحة رضي الله عنه ، وقال لهم : يا قوم والله للذي تكرهون للذي خرجتم تطلبون الشهادة ، ما نقاتل الناس بعدد ، ولا عدة ، ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين ، إما ظهور ، وإما شهادة ، فقال الناس : صدق والله ابن رواحة ، فمضوا حتى إذا قاربوا البلقاء – منطقة بالشام – ، لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية يقال لها مشارف ، فدنا العدو وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها : مؤتة وتسمى اليوم بالكرك ، فالتقى الناس عندها ، فتجهز المسلمون وجعلوا على ميمنة الجيش قطبة بن قتاة رجل من بني عذرة ، وعلى الميسرة عباية بن مالك رجل من الأنصار .

والتحم الجيشان وحمي الوطيس ، واقتتلوا قتالا شديداً ، وقتل أول قادة المسلمين زيد بن حارثة رضي الله عنه ، مقبلاً غير مدبر ، فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب بيمينه ، وأخذ ينشد :

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها

والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها

علي إن لا قيتها ضرابها

فقطعت يمينه رضي الله عنه ، فأخذ الراية بشماله فقطعت ، فاحتضنها بعضديه حتى قتل رضي الله عنه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث شاء ويقال إن رجلا من الروم ضربه يومئذ ضربة فقطعه نصفين ، فأخذ الراية عبد الله بن رواحة رضي الله عنه ، ثم تقدم بها على فرسه فجعل يستنزل نفسه ، ويقول :

أقسمت يا نفس لتنزلن_ لتنزلنه أو لتكرهنه

إن أجلب الناس وشدوا الرنة_ ما لي أراك تكرهين الجنة

قد طال ما قد كنت مطمئنة_ هل أنت إلا نطفة في شنة

ثم تقدم رضي الله عنه فقاتل حتى قتل.

الرسول يتنبأ بما حدث:

قال ابن إسحاق ولما أصيب القوم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغني أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قتل شهيدا ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل شهيدا قال ثم صمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تغيرت وجوه الأنصار وظنوا أنه قد كان في عبد الله بن رواحة بعض مل يكرهون ثم قال ثم أخذها عبدالله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيدا ثم قال لقد رفعوا الى الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب فرأيت في سرير عبدالله بن رواحة ازورارا عن سريري صاحبيه فقلت عم هذا فقيل لي مضيا وتردد عبدالله بعض التردد ثم مضى حزن الرسول على جعفر ووصيته بآله قال ابن إسحاق فحدثني عبدالله بن أبي بكر عن أم عيسى الخزاعية عن أم جعفر بن محمد بن جعفر بن أبي طالب عن جدتها أسماء بنت عميس قالت لما أصيب جعفر وأصحابه دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد دبغت أربعين منا قال ابن هشام يروى أربعين منيئة وعجنت عجيني وغسلت بني ودهنتهم ونظفتهم قالت فقال لي رسول الله ائتني ببني جعفر قالت فأتيته بهم فتسممهم وذرفت عيناه فقلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي ما يبكيك أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء قال نعم أصيبوا هذا اليوم قالت فقمت أصيح واجتمعت الي النساء وخرج رسول الله الى أهله فقال لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاما فانهم قد شغلوا بأمر صاحبهم وحدثني عبد الرحمن بن القاسم بن محمد عن أبيه عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت لما أتى نعي جعفر عرفنا في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم الحزن قالت فدخل عليه رجل فقال يا رسول الله إن النساء عنيننا وفتننا قال فارجع إليهن فأسكتهن قالت فذهب ثم رجع فقال له مثل ذلك قال تقول وربما ضر التكلف أهله قالت قال فاذهب فأسكتهن فإن أبين فاحث في أفواههن التراب قالت وقلت في نفسي أبعدك الله فوالله ما تركت نفسك وما أنت بمطيع رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت وعرفت أنه لا يقدر على أن يحثي في أفواههن التراب .

ثم أخذ الراية ثابت بن أرقم فقال : يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم ، فقالوا : أنت فقال : ما أنا بفاعل ، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد .

وبعد أن استلم الإمرة خالد انتهج خطة جديدة في مواجهة العدو حيث حوَّل الميسرة ميمنة ، والميمنة ميسرة ، والمؤخرة مقدمة والعكس ، فظن الروم أن المسلمين جاءهم مدد ، فلما حمل عليهم المسلمون هزموهم بإذن الله ، غير أن خالدا لم يتبع أدبارهم بل رجع بالجيش إلى المدينة وهناك عاتبهم المسلمون ، قائلين لهم : لهم أنتم الفرار فقال صلى الله عليه وسلم بل هم الكرار إن شاء الله .

دروس وعبر من غزوة مؤتة :

هذه هي غزوة مؤتة تكاد تتفجر عظة وعبرة ، فما إن يقرأ القارئ هذه الأحداث إلا ويجد الإعجاب قد عقد لسانه، فأي بشر هؤلاء ، يقفون بجيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل أمام جيش هائل قوامه مائتي ألف مقاتل، إن تصورا سريعا للقوتين ليعطي نتائج حاسمة بانتصار الجيش الكبير على الجيش المقابل ، ومع ذلك يتقدم المسلمون على قلة عددهم ، وضعف عُدَدَهِم – آلة الحرب – ليضربوا أعظم صور التضحية والفداء ، بل ولينتصروا على ذلك العدو ، في أعظم مهزلة يتعرض لها جيش الإمبراطورية الرومانية **، إن غزوة مؤتة بكل المقاييس العسكرية معجزة من المعجزات ، وكرامة من الكرامات ، لقد وضعت معركة مؤتة القاعدة العسكرية الإسلامية في مواجهة العدو ، فنحن لا نقاتل بعدد ولا عدة ولكن نقاتل بهذا الدين ، فإذا تمحض قتالنا نصرة لدين الله ، وقمنا – ما استطعنا – بما أوجبه الله علينا من الأخذ بالأسباب الظاهرة ، كان النصر حليفنا بإذن الله .**

إن ما يتمتع به المسلم من حب البذل والتضحية بالنفس والمال في سبيل هذا الدين نابع من إيمانه بالله ويقينه بما عنده ، فهل تُحيا في الأمة هذه البسالة ، وهل نستخلص من غزوة مؤتة – خاصة – وتاريخ المسلمين الجهادي – عامة – دروسا تزرع التضحية والفداء في قلوب فتيانه حتى يعود للأمة سابق مجدها وغابر عزها ، نسأل المولى الكريم أن يردنا إلى ديننا ردا جميلا إن ولي ذلك والقادر عليه والحمد لله رب العالمين.

تسمية شهداء مؤتة وهذه تسمية من استشهد يوم مؤتة من قريش ثم من بني هاشم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وزيد بن حارثة رضي الله عنه ومن بني عدي بن كعب مسعود بن الأسود بن حارثة بن نضلة ومن بني مالك بن حسل وهب بن سعد بن أبي سرح ومن الأنصار ثم من بني الحارث بن الخزرج عبد الله بن رواحة وعباد بن قيس ومن بني غنم بن مالك بن النجار الحارث بن النعمان بن أساف بن نضلة بن عبد بن عوف بن غنم ومن بني مازن بن النجار سراقة بن عمرو بن عطية بن خنساء قال ابن هشام وممن استشهد يوم مؤتة فيما ذكر ابن شهاب من بني مازن بن النجار أبو كليب وجابر ابنا عمرو بن زيد بن عوف بن

مبذول وهما لأب وأم ومن بني مالك بن أفصى عمرو وعامر ابنا سعد بن الحارث بن عباد بن سعد بن عامر بن ثعلبة بن مالك بن أفصى. قال ابن هشام ويقال أبو كلاب وجابر ابنا عمرو.

نسأل الله ان نسير علي دربهم ونلتحق بركبهم في الجنة ان شاء الله

فتــح مكـة

في صلح الحديبية كان الاتفاقُ بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وزعماء قريش على أن من أحب أن يدخل في عقد محمد صلى الله عليه وسلم وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم، وكانت بين القبيلتين حروب ومنازعات هدأت لوقت ما بعد هذا الصلح.

وبعد ما حدث للمسلمين في (مؤتة) قام رجل من بني بكر يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم بمسمع رجل من خزاعة، فقام هذا وضربه، فهاج ذلك الحادثُ دفينَ الأحقاد، واستثار كمينَ الأضغان، فقام جماعة من بني بكر فعقدا العزم على الأخذ بثأرهم، واستعانوا بحلفائهم من قريش فأعانوهم سرًّا بالرجال والسلاح، وأغاروا ليلاً على خزاعة وهم على ماء يقال له الوتير، فقتلوا منهم ثلاثة وعشرين رجلاً، فهرعت خزاعة إلى الحرم، ولجأت إلى دار بديل بن ورقاء، وأسرع عمرو بن سالم الخزاعي إلى المدينة، فأنشد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد مع الناس:

يا رب إني ناشد محمدًا

حلفَ أبينا وأبيه الأتلدا

إن قريشًا قد أخلفوك الموعدا

ونقضوا ميثاقك المؤكدا

هم بَيَّتونا بالوتير هُجَّدا

وقتلونا ركعًا وسجدًا

فانصر هداك الله نصرًا أعتدا

وادع عباد الله يأتوا مددًا

فيهم رسول الله قد تجردا

إن سِيمَ خسفًا وجهه تربدا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نصرت يا عمرو بن سالم"، وعرضت لرسول الله صلى الله عليه وسلم سحابة فنظر إليها وقال: "إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب"، وفي هذا المقام يروى عن ميمونة بنت الحارث زوج النبي صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بات عندها ليلة، فقام يتوضأ

للصلاة، قالت: فسمعته يقول في متوضئه: لبيك لبيك ثلاثًا، نصرت نصرت ثلاثًا. فلما خرج قلت: يا رسول الله سمعتك تقول في متوضئك: لبيك لبيك ثلاثًا، نصرت نصرت ثلاثًا، كأنك تكلم إنسانًا، هل كان معك أحد؟ قال: "هذا راجز بني كعب يستنصرني ويزعم أن قريشًا أعانت عليهم بكر بن وائل"... قالت: فأقمنا ثلاثًا ثم صلى الصبح بالناس، فسمعت الراجز ينشد... أخرجه الطبراني في الصغير.

قال ابن إسحق: "ثم خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فأخبروه بما أصيب منهم وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس: "كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد ويزيد في المدة" وتحقق ما تنبأ به الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد أرسلت قريش أبا سفيان إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لهذا الغرض بعد أن رهبوا ما صنعوا, ووصل أبو سفيان المدينة، فدخل على بنته أم حبيبة زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوته عنه. فقال: يا بنية ما أدري أرغبتِ بي عن هذا الفراش أم رغبتِ به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت رجل مشرك نجس ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر. فقالت: بل هداني الله للإسلام وأنت يا أبت كيف تنأى عن الإسلام وتقبل أن تعبد حجرًا لا يسمع ولا يبصر؟ فقام من عندها فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد فقال: يا محمد, إني كنت غائبًا في صلح في الحديبية، فجدد العهد وزدنا في المدة، فقال صلى الله عليه وسلم: "ألذلك جئت؟"، قال: نعم، فقال: "فهل كان من حدث؟"، فقال: معاذ الله، نحن على صلحنا وعهدنا لا نغير ولا نبدل، فقال صلى الله عليه وسلم: "فنحن على ذلك"، فأعاد القول على النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يرد عليه شيئًا، فانطلق إلى أبي بكر فعرض عليه أن يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى، فذهب إلى عمر فقال: أنا أشفع لكم؟ والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به، فأتى عثمان فرفض أن يشفع لهم، فأتى عليًّا فامتنع، وكان معه فاطمة وابنها الحسن، فقال أبو سفيان: يا بنت محمد هل لك أن تجيري بين الناس؟ فقالت: إنما أنا امرأة، فقال: مري بنيك هذا فيجير بين الناس، فقالت: ما بلغ ابني أن يجير. فقال أبو سفيان لعلي: يا أبا الحسن، إني أرى الأمور قد اشتدت علي فانصحني. فقال: والله ما أعلم شيئًا يغني عنك، ولكن قم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك، ففعل ما أشار به، ثم ركب بعيره وانصرف بعد أن طالت غيبته واتهمته قريش من أجل ذلك بأنه دخل في دين محمد.

ولم يكد أبو سفيان يغادر المدينة حتى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بأن يتجهزوا لمباغتة أهل مكة، وقال: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها، وسمع حاطب بن أبي بلتعة بالأمر فكتب كتابًا يخبر أهل مكة بوجهة النبي صلى الله عليه وسلم، واستأجر لذلك امرأة وطلب منها أن تخفيه ما استطاعت، فأطلع الله نبيه على ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام لعلي والزبير والمقداد: "انطلقوا حتى تأتوا

روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها"، فانطلقوا حتى أتوا الروضة، فوجدوا المرأة، فطلبوا منها الكتاب، فأنكرت أن يكون معها كتاب، فقالوا: لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتوا به النبي صلى الله عليه وسلم فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين يخبرهم ببعض أمر النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما هذا يا حاطب؟" قال: لا تعجل علي يا رسول الله؛ إني كنت امرأ ملصقًا في قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة، فأحببت إذ فاتني من النسب فيهم أن أصطنع إليهم يدًا يحمون قرابتي، وما فعلت ذلك كفرًا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنه قد صدقكم"، فقال عمر: دعني يا رسول الله فأضرب عنقه، فقال: "لعل الله قد اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم". [أخرج هذا البخاري ج 6 ص 186 ومسلم ج 4 ص 1941 عن علي رضي الله عنه]، وقد نزل في هذا قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ [الممتحنة: 1]. الآيات، ورحم الله من قال:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد ♦♦♦ جاءت محاسنه بألف شفيع

أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى من حوله من العرب يقول لهم: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان في المدينة"، فقدم من أسلم منهم حتى تجمع عنده عشرة آلاف، وتلاحق به ألفان، فكانوا اثني عشر ألفًا من المهاجرين والأنصار وبقية القبائل المسلمة، فاستخلف عليه الصلاة والسلام كلثوم بن حصين على المدينة، واستخلف ابن أم مكتوم على الصلاة بها، وخرج عليه الصلاة والسلام بعد العصر لعشر مضين من رمضان سنة ثمان من الهجرة، ولما وصل إلى الكديد أفطر فأفطر الناس، وعندما وصل الجحفة لقيه عمه العباس مهاجرًا بأهله وعياله، فأمره أن يرسل عياله إلى المدينة ويبقى هو معه، وفي مكان يدعي نيق العقاب لقيه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة أخو أم سلمة، فالتمسا الدخول عليه، فقال: لا حاجة لي فيهما، فقال ابن عمه أبو سفيان وكان معه بني له: والله ليأذن لي أو لآخذن بيدي بني هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشًا وجوعًا، فرق لهما وسمح لهما بالدخول فأسلما.

ولما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بمر الظهران أمر بأن يوقد كل من كان معه في الجيش نارًا فاستجابوا لأمره، وكانت قريش قد أرسلت أبا سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يلتمسون أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرأوا في الطريق نيرانًا كأنها نيران عرفة، فارتاعوا وفزعوا وسقط في أيديهم، واتفق أن كان العباس راكبًا بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم يبحث عن رجل يبعث به إلى أهل مكة ليطلب منهم أن يستأمنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم خشية أن يلتهمهم جيشه، فلما التقى بأبي سفيان عرفه من صوته فنصح العباس له أن يركب خلفه ليأخذ له الأمان من رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يظفر به

أحد من المسلمين فيريق دمه، واستجاب أبو سفيان، وبينما هو راكب خلف العباس إذ لمحه عمر فأسرع إليه يريد أن يدق عنقه، فأسرع به العباس ودخل به على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولحقهما عمر يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ضرب عنقه، فقال العباس: يا رسول الله إني قد أجرته، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: "اذهب به إلى رحلك يا عباس، فإذا أصبحت فأتني به"، فذهب به العباس إلى رحله فبات عنده، فلما أصبح غدا به على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تشهد أن لا إله إلا الله"، قال: بأبي أنت وأمي، ما أكرمك وأحلمك وأوصلك، لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنا شيئًا، لقد دعوت إلهك فأجابك ونصرك، ودعونا آلهتنا فما سمعت لنا. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟" قال: بأبي أنت وأمي! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه ففي النفس منها شيء حتى الآن قال العباس: ويحك يا أبا سفيان أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن يضرب عنقك فشهد شهادة الحق وأسلم فقال العباس: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن"، فلما أراد أن ينصرف قال الرسول صلى الله عليه وسلم للعباس: "احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها"، فأوقفه العباس حيث أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم فمرت كتائب الجيش كتيبة كتيبة على أبي سفيان حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتيبة رجراجة لا يرى إلا الحدق من الحديد، فقال أبو سفيان: ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك بن أخيك عظيمًا، فقال العباس: يا أبا سفيان إنها النبوة، قال: فنعم إذن.

بعد ذلك قال العباس: يا أبا سفيان، أسرع إلى قومك وانصح لهم كي يحسنوا استقبال رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لا يكون هناك قتل، فهرع إليهم أبو سفيان يصرخ في أهل مكة بأعلى صوته: يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا ويحك! وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

وضع الرسول صلى الله عليه وسلم خطة الدخول إلى مكة؛ فجعل الزبير بن العوام على الجناح الأيسر من الجيش، وأمره أن يدخل مكة من شمالها، وجعل خالد بن الوليد على الجناح الأيمن، وأمره أن يدخل مكة من أسفلها، وجعل أبا عبيدة بن الجراح على جماعة المهاجرين، وأمره أن يدخل مكة من أعلاها في حذاء جبل هند، وجعل سعد بن عبادة على جماعة الأنصار ليدخل مكة من جانبها الغربي، وبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم عن سعد أنه قال: (اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة... اليوم أذل الله قريشًا)، فقال صلى الله عليه وسلم: "اليوم يوم المرحمة... اليوم تعظم الجزية... اليوم أعز الله فيه قريشًا"، ثم أمر بأن تؤخذ الراية من سعد

وتدفع إلى قيس ابنه، فلما دنا من مكة أمر بأن يأخذها علي بن أبي طالب حتى لا يثير حفيظتهم، ويهيج ضغينتهم، وأوصى عليه الصلاة والسلام قادة الجيش ألا يقاتلوا، وألا يسفكوا دمًا إلا إذا أكرهوا على ذلك، ووصل الجمعة لعشرين خلت من رمضان نحو مكة. فرأى أهلا لا يقاومونه فانحنى شاكراً لله، ودخلت الجيوش مكة دون مقاومة إلا جيش خالد، فقد كان يقيم في الحي الذي دخله أعدى أعداء الإسلام فناوشوه فقتل منهم، وفر صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما، وكان هناك رجل يقال له (حماس بن قيس) دخلت عليه امرأته وهو يصلح سلاحًا فسألته: لماذا تعد ما أرى؟ قال: لمحمد وأصحابه، فقد علمت أنهم خرجوا يريدون مكة، وإني لأرجو أن أخدمك بعضهم، ثم قال:

إن يُقبلوا اليوم فما لي عِلةْ ♦♦♦ هذا سلاحٌ كامل وألَّةْ

وذو غرارين سريع السلةْ.

وما كاد يخرج حتى عاد إليها منهزمًا يقول لها: أغلقي على بابي، فإن محمدًا يقول: (من أغلق عليه بابه فهو آمن)، ثم قال:

إنك لو شهدتِ يوم الخندمةْ

إذ فر صفوان وفر عكرمةْ

واستقبلتنا بالسيوف المسلمةْ

يقطعن كل ساعد وجمجمةْ

ضربًا فلا تسمع إلا غمغمةْ

لهم نهيتٌ حولنا وهمهمةْ

لم تنطقي في اللوم أدنى كلمةْ

علم الرسول صلى الله عليه وسلم بما وقع من خالد، وعلم أنه أكره على القتال فقال: "قضاء الله خير"، وطفق عليه الصلاة والسلام يجيل بصره فيما حوله، وخرج حتى بلغ الكعبة، فطاف بالبيت سبعًا على راحلته، واستلم الركن بمحجن في يده، فلما انتهى من طوافه استدعى عثمان بن طلحة ففتح الكعبة ودخلها، ثم خرج فوقف على بابها وقد تكاثر الناس حولها فقال: "لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده"،

ثم قال: "أيها الناس! إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا أو يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص فيها لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا: إن الله قد أذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يأذن لكم، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها الآن كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب)، ثم قال: يا معشر

قريش! إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء... الناس من آدم وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: 13]، ثم قال: "يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم؟" قالوا: خيرًا؛ أخ كريم وابن أخ كريم، قال: "اذهبوا فأنتم الطلقاء"، وفي هذا اليوم حمل صلى الله عليه وسلم ثلثمائة وستين صنمًا كانت حول البيت، فكلما مر بصنم أشار إليه بقضيبه وهو يقول: "جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد"، فما أشار إلى صنم منها في وجهه إلا وقع لقفاه، ولا أشار إلى قفاه إلا وقع لوجهه، حتى ما بقي منها صنم إلا وقع، مع أنها كلها كانت مثبتة بالحديد والرصاص. كذلك أمر بمحو صور الملائكة وغيرهم فطمست، يروى أنه لما رأى إبراهيم عليه السلام مصورًا في يده الأزلام يستقسم بها قال: "قاتلهم الله؛ جعلوا شيخنا يستقسم بها، ما شأن إبراهيم والأزلام! ما كان إبراهيم يهوديًّا ولا نصرانيًّا، ولكن كان حنيفًا مسلمًا، وما كان من المشركين".

ثم جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد، فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده، وقال: يا رسول الله اجمع لنا الحجابة والسقاية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أين عثمان بن طلحة"، فدعي له، فقال: "هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء".

ويروى أنه صلى الله عليه وسلم لما دخل الكعبة ومعه بلال أمره صلى الله عليه وسلم بأن يؤذن، وكان أبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوسًا بفناء الكعبة، فقال عتاب: لقد أكرم الله أسيدًا ألا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه، فقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته، فقال أبو سفيان: لا أقول شيئًا، ولو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصى، فخرج عليهم النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: "قد علمت الذي قلتم"، ثم ذكر ذلك لهم، فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك.

كذلك يروى أن فضالة بن عمير أراد قتل النبي صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أفضالة؟" قال نعم! فضالة يا رسول الله، قال: "ماذا كنت تحدث به نفسك"، قال: لا شيء، كنت أذكر الله، قال: فضحك النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: "استغفر الله"، ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إلي منه.

وبقي صلى الله عليه وسلم بمكة خمسة عشر يومًا يفقه أهلها في الدين، وينظم مصالح المسلمين، وفي المدة التي أقام فيها الرسول صلى الله عليه وسلم بمكة جاء أبو بكر بأبيه يقوده حتى وقف بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم، فلما رآه الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه"،

فقال أبو بكر: يا رسول الله هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت, فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم، ومسح صدره، ثم قال له: أسلم فأسلم، وكذلك أسلم معاوية بن أبي سفيان، وجاءت أمه هند بعد أن كانت مختفية فأعلنت إسلامها ورحب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت له: والله يا رسول الله، ما كان أحد أحب إلي أن يذلوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم أهل خباء أحب إلي أن يعزوا من أهل خبائك.

أما الذين استثناهم النبي صلى الله عليه وسلم وأهدر دمهم فقد لاذوا بالفرار وبعضهم أدركته عناية الله فأعلن إسلامه وظفر بالعفو... من هؤلاء عبد الله بن سعد بن أبي سرح غيبه أخوه من الرضاعة عثمان بن عفان حتى سكنت نفسه صلى الله عليه وسلم، ثم استأمن له النبي فأعرض عنه مرارًا، ثم بايعه، فلما خرج عثمان مع عبد الله قال عليه السلام: "أعرضت عنه ليقوم إليه أحدكم فيضرب عنقه"، فقالوا: هلا أشرت إلينا، فقال: "لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين", ومن هؤلاء عكرمة بن أبي جهل، فر يريد أن يركب البحر، فلحقت به زوجته وقد أسلمت وأخذت له أمانًا من الرسول صلى الله عليه وسلم، فقالت: لا تهلك نفسك، فقد جئت من عند أبر الناس وخيرهم، وقد استأمنته لك، فرجع، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم وثب قائمًا فرحًا به وقال: "مرحبًا بمن جاءنا مهاجرًا مسلمًا"، فطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغفر له كل عداوة عاداه إياها، فأجابه واستغفر له.

ومن هؤلاء صفوان بن أمية أراد أن يرمي بنفسه في البحر، فلحق به ابن عمه عمير بن وهب بعد أن أخذ له أمانًا من الرسول صلى الله عليه وسلم، وبعد أن أخذ عمامته كعلامة تلقي في قلبه الطمأنينة، فلما أدركه طمأنه وأراه العمامة، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له: إن هذا يزعم أنك أمنتني، قال: "صدق"، قال: أمهلني بالخيار شهرين، قال "أربعة أشهر"، ولم يمض سوى زمن يسير حتى أسلم وحسن إسلامه، وممن أسلم أيضًا عتبة ومعتب ابنا أبي لهب، جاء في الإصابة [ج 2 ص 455] "أخرج ابن سعد من طريق ابن عباس عن أبيه العباس بن عبد المطلب قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة في الفتح قال لي: يا عباس! أين ابنا أخيك عتبة ومعتب؟ قلت: تنحيا فيمن تنحى. قال: ائتني بهما، قال: فركبت إليهما إلى عرفة فأقبلا مسرعين وأسلما وبايعا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إني استوهبت ابني عمي هذين من ربي فوهبهما لي".

وأجارت أم هانئ اثنين؛ أحدهما زهير بن أبي أمية، واختلف في الآخر، فدخل عليها أخوها يريد قتلهما، فأغلقت الباب عليهما، وأسرعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم تخبره الخبر، فقال: قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ، وقد أسلما وحسن إسلامهما.

وأسلم سهيل بن عمرو وهو الذي تعاقد مع النبي صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية، وقد فرح النبي صلى الله عليه وسلم بإسلامه وأثنى عليه, وأسلم وحشي قاتل حمزة مع وفد أهل الطائف فلما عرفه النبي طلب منه أن يغيب وجهه عنه.

بقي صلى الله عليه وسلم في مكة بضع عشرة ليلة يقصر الصلاة، وظن به الأنصار أنه سيدعهم ويبقى في مكة، أخرج مسلم [ج 3 ص 1406] من حديث أبي هريرة في فتح مكة: قالت الأنصار بعضهم لبعض: أما الرجل فأدركته رغبة في قربته ورأفة بعشيرته, قال أبو هريرة: وجاء الوحي, وكان إذا جاء الوحي لا يخفى علينا، فإذا جاء فليس أحد يرفع طرفه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ينقضي الوحي. فلما انقضى الوحي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا معشر الأنصار". قالوا: لبيك يا رسول الله. قال: "قلتم: أما الرجل فأدركته رغبة في قربته", قالوا: قد كان ذاك، قال: "كلا, إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، والمحيا محياكم والممات مماتكم". فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضن بالله وبرسوله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم".

ولما عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرحيل ولى عتاب بن أسيد على مكة وذهب إلى حنين، وكان ما كان هناك، وبعدئذ قفل راجعًا إلى المدينة، وهنالك طار إليه كعب بن زهير مستخفيًا, فلما صلى الصبح قال: يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبًا مسلمًا، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به! قال: نعم. قال: أنا يا رسول الله كعب بن زهير، ثم أنشده قصيدته (بانت سعاد) وفيها يقول:

وقال كل صديق كنت آمُله

لا أُلفِينك إني عنك مشغولُ

فقلتُ خلوا سبيلي لا أبالَكم

فكل ما قدر الله مفعولُ

كل ابنِ أنثى وإن طالت سلامتُه

يومًا على آلة حدباءَ محمولُ

نُبئت أن رسول الله أوعدني

والعفوُ عند رسول الله مأمولُ

مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة ال

قرآن فيها مواعيظ وتفصيلُ

لا تأخذنّي بأقوال الوشاة ولم

أذنب ولو كثرت فيّ الأقاويلُ

فلما قال:

إن الرسول لسيف يُستضاءُ به ♦♦♦ مهند من سيوف الله مسلولُ

خلع عليه الرسول صلى الله عليه وسلم بردته.

عبر ودروس من فتح مكة:

1- أول درس نتلقاه من غزوة الفتح أن الله إذا أراد أمرًا يسر أسبابه؛ فقد كان صلح الحديبية مقدمة الفتح، وكان غدر قريش سبيلاً لإتمامه.

2- وفاء النبي صلى الله عليه وسلم مع حلفائه، ومسارعته لنصرتهم.

3- نورانية الرسالة وصدقها، كما جرى حين تنبأ بمقدم راجز بني كعب، ومقدم أبي سفيان، وكما حدث مع حاملة كتاب حاطب، ومع فضالة بن عمير، ومع عتاب بن أسيد ورفيقيه، ومع الأنصار لما حسبوا أنه سيبقى بمكة ولا يعود إليهم.

4- وفاء أم حبيبة بنت أبي سفيان لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وإيثارها له على أبيها.

5- أدب أبي بكر وعمر وعثمان وعلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

6- أخذ الحيطة في إخفاء أخبار الجيش عن العدو ووضع الخطة لمباغتته.

7- التجاوز عن الهفوات إذا ثبت حسن نية صاحبها إذا كان له ماض مشرف.

8- استخلاف الوالي من ينوب عنه في أثناء غيابه.

9- الرخصة في الفطر للمسافر، فإذا كان الفطر يقوي المجاهدين وكان الخطر محدقًا بهم لزمهم الفطر على أن يقضوا ما أفطروه.

10- اتخاذ وسائل الحرب النفسية إرهابًا للعدو كما حدث من أمره للجنود بإيقاد النيران، وكما جرى من حبس أبي سفيان عند خطم الجبل وقت استعراض الجيش.

11- إكرامه لأبي سفيان تمشيًا مع مبدأ (أكرموا عزيز قوم ذل).

12- حسن سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فقد أخذ الراية من سعد بعد أن ظهر خطؤه وأعطاها لنجله، وبهذا عالج خطأه وضمن رضاه، فلما قارب مكة سلمها إلى الزبير وقيل لعلي، حتى يكون قواد الفتح من بينها فلا يثيرون حفيظة المكيين ولا يهيجون أحقادهم.

13- تواضع الرسول صلى الله عليه وسلم واعترافه بفضل الله عليه.

14- حرمة مكة وأهليها وأشجارها.

15- سماحة الرسول الحربية، وعفوه عمن أساء إليه كسبًا لودهم.

16- سقوط الأصنام وتحطمها بإشارة من قضيبه.

17- طمس الصور المحرمة منعًا للفتنة.

18- أمانة النبي صلى الله عليه وسلم وتسليمه مفتاح الكعبة لحامله.

19- شفاء قلب فضالة من الأحقاد بمجرد وضع النبي صلى الله عليه وسلم يده عليه.

20- تواضع النبي صلى الله عليه وسلم مع والد أبي بكر واستجابته لمن طلب عمامته أمارة لتأمين أحد خصومه، وإمهاله لمن استمهله في اعتناق الإسلام ليدخل فيه طائعًا مختارًا كما حدث مع صفوان.

21- بره بأهله وأبناء عمه أبي لهب.

22- للمرأة أن تجير، وإجارتها ملزمة للمسلمين.

23- الإسلام يجب ما قبله كما يستفاد من خبر وحشي قاتل حمزة.

24- حب الأنصار للنبي المختار وبر النبي صلى الله عليه وسلم بهم.

هذه دروس وعبر نقتبسها من غزوة الفتح، وتبقى عبرة لعلها أوضح العبر؛ وهي أن الباطل وأهله قد ينعمون مدة من الوقت فيصولون ويجولون، ولكن الجولة الأخيرة دائمًا للحق، فهو الذي يعلو ولا يعلى عليه، كما قال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: 18].

وإننا لنأمل في هذه الأيام العطرة أن يؤيدنا الله بروح من عنده، ويهبنا القوة والعزة، والنصر والتمكين، إنه نعم المولى ونعم النصير.

غـزوة حـنيـن

كانت غزوة حنين في شهر شوال العام الثامن من الهجرة

يقول أصحاب السير: لما فتح الله تعالى لرسوله مكة أطاعت له قبائل العرب وأسلموا الا هوازن وثقيف فانهم كانوا عتاة، فاجتمع أشرافهم فقالوا :ان محمدا قاتله قوم لم يحسنوا القتال ولم يكن لهم علم بالحرب فغلب عليهم فانه سيقصدنا فرأوا أن يبدأوا بقتاله، وكان على هوازن مالك بن عوف النضري وعلى ثقيف قائدهم قارب بن الأسود، فاجتمعوا في أربعة ألاف مقاتل وخرجوا بأموالهم ونسائهم وأولادهم لئلا يفروا، وبعث مالك بن عوف عيونا من رجاله فأتوه وأخبروه بأنهم قد رأوا رجالا بيضا علي خيل بلق فما رده ذلك عما يريد، ولما سمع النبي صلي الله عليه وسلم بذلك أرسل اليهم عبد الله ابن أبي حدرد وأمره بالدخول في الناس فدخل عليهم حتي سمع وعلم ما أجمعوا عليه من حرب المسلمين فأجمع الرسول صلي الله عليه وسلم المسير الي هوازن واستعار من صفوان ابن أميه – وهو يومئذ مشرك- السلاح، واستعمل علي مكة "عتاب ابن اسيد"- وهو يومئذ ابن واحد وعشرين عاما- ومعاذ بن جبل اماما ومفقها لمن بها ، وخرج النبي صلي الله عليه وسلم عامدا الي حنين معه ألفان من أهل مكة وعشرة ألاف من أصحابه الذين فتح الله عليهم فكانوا اثني عشر ألفا، فخرج بهم من مكة الي حنين يوم السبت لست خلون من شوال من العام الثامن للهجرة، فقال رجل "لن نغلب اليوم من قله" فشق

ذلك علي رسول الله صلي الله عليه وسلم، فلما كان العشاء جاءه فارس فأخبره أن هوازن قد خرجت على بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشائهم فتبسم النبي صلي الله عليه وسلم وقال "تلك غنيمة للمسلمين غدا ان شاء الله".

و كان مالك بن عوف قد قسّم جيشه في صورة مجموعات في مداخل وادي حنين وشعابه على أن يفاجئوا المسلمين بالسّهام وفى يوم الغزوة دخل المسلمون وادي حنين غير عالمين بالكمائن التي تتربّص بهم و فوجئوا بالسّهام تنهال عليهم من كل جانب و هجم عليهم جيش العدو بغتة و تقهقر المسلمون و تراجعوا في غير نظام عندها قام الرّسول صلّى الله عليه و سلّم بالنّداء على المسلمين خاصّة المهاجرون والأنصار فاجتمع عنده مائة رجل ثم قال : " الآن حمي الوطيس : ثم قبض قبضة من تراب و رمى بها وجوه الأعداء و قال "شاهت الوجوه " و قاتل هو و من معه حتى هزم العدو و تقهقروا إلى أوطاس و نخلة و كان معظم الفارّين قد توجّهوا للطائف فأرسل الرّسول فرقة لمطاردة الفارّين إلى الطائف حتى لا يعاودوا مهاجمة جيش المسلمين .

و قد نزلت في غزوة الطائف و موقف المسلمين فيها الآية القرآنية : " و لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ () ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ"

وأمر النبي صلي الله عليه وسلم بالسبي والغنائم أن تجمع فكانت ستة ألاف رأس والابل أربعة وعشرون ألفا والغنم أكثر من أربعين ألف وأربعة الاف أوقية من الفضة وحبس الغنائم الي أن فرغ من غزوة الطائف .وقد كره المسلمون نساء السبي اذ كن ذوات أزواج فاستفتوا النبي صلي الله عليه وسلم فنزلت
(والمحصنات من النساء الا ما ملكت أيمانكم)" النساء/ 24 فأعلمهم أن نساء السبي حلال للسابين وأن النكاح مرتفع بالسبي وأمرهم ألا توطأ حامل حتي تضع حملها ولا غير ذات حمل حتي تحيض حيضة، واستشهد في هذه الغزوة أربعة من المسلمين ومن المشركين أكثر من سبعين قتيلا.
ولما فرغ النبي صلي الله عليه وسلم من حنين سار الي الطائف يريد جمعا من هوازن و ثقيف هربوا وتحصنوا بحصن الطائف فعسكر عند موضع مسجد الطائف اليوم، و حاصرهم بضع عشرة ليلة ونصب عليهم المنجنيق ورماهم، فكان أول منجنيق ينصب في الاسلام ، واعتق رسول الله صلي الله عليه و سلم من نزل من الحصن ومنهم أبو بكرة نفيع بن الحارث رضي الله عنه,
ولما حاصر رسول الله صلي الله عليه وسلم الحصن فلم ينل منهم شيئا ,قال : انا قافلون غدا ان شاء الله، فثقل عليهم و قالوا: "نذهب ولا نفتحه"، فقال صلي الله عليه وسلم :"اغدوا علي القتال" فغدوا فأصابهم جراح,

فقال: انا قافلوا غدا ان شاء الله، فأعجبهم فضحك النبي صلي الله عليه وسلم , وأمر أصحابه أن يقولوا وهم عائدون: لا اله الا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده، فلما ارتحل قال: قولوا : آيبون عابدون لربنا حامدون, ولما قيل له ادع علي ثقيف، قال: "اللهم اهد ثقيفا وائت بهم".

واستأني رسول الله صلي الله عليه وسلم بهوازن – أي انتظر أن يقدموا عليه مسلمين – بضع عشرة ليلة ثم بدأ يقسم الأموال .

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما قال: أتي رجل بالجعرانة – منصرفة من حنين– وفي ثوب بلال فضة، ورسول الله صلي الله عليه وسلم يقبض منها ويعطي الناس فقال: (يا محمد اعدل)، فقال: ويلك ومن يعدل اذا لم أكن أعدل؟؟ لقد خبت وخسرت ان لم أكن أعدل، فقال عمر بن الخطاب :

يا رسول الله أفأقتل هذا المنافق؟، فقال معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي، ان هذا وأصحابه يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم ويمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية،

وكان هذا تنبؤ بظهور الخوارج الذين ظهروا في صدر عصر الخلفاء الراشدين، وأراد رجل أن يقتل رسول الله صلي الله عليه وسلم وهو شيبة بن أبي عثمان بن أبي طلحة – وكان أبوه قد قتل يوم أحد – فلما أقبل علم أنه ممنوع منه فناداه صلي الله عليه وسلم وقال له :"يا شيبة ادن", ووضع يده علي قلبه فاستخرج الله الشيطان من قلبه، فرفع بصره الي النبي صلي الله عليه وسلم فهو أحب اليه من سمعه و بصره فأمره النبي صلي الله عليه وسلم أن يقتل الكفار , فلما رجع رسول الله صلي الله عليه وسلم الي معسكره دخل عليه شيبة فقال يا شيبة الذي اراد الله خير مما أردت لنفسك ثم حدثه بما اضمر في نفسه مما لم يذكره لأحد قط، فأسلم شيبة وسأل رسول الله صلي الله عليه وسلم ان يستغفر له فاستغفر له.

ثم قدم وفد هوازن مسلمين , فسألوه أن يرد اليهم سبيهم وأموالهم، فخيرهم النبي صلي الله عليه وسلم بين السبي و المال فاختاروا السبي فقام صلي الله عليه وسلم فأثني علي الله بما هو أهله ثم قال :أما بعد فان اخوانكم قد جاءوا تائبين، واني قد رأيت ان أرد اليهم سبيهم فمن أحب منكم أن يكون على حظه نعطه من أول ما يفئ الله علينا فليفعل، فقال الناس قد طيبنا ذلك يا رسول الله "",فردوا الى الناس أبناءهم ونساءهم وعاد مالك بن عوف تائبا فرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم أهله و ماله وأعطاه مائة من الابل، وحسن اسلامه واستعمله النبي صلي الله عليه وسلم علي من أسلم من قومه, ثم خرج معتمرا من الجعرانة ثم عاد الي المدينة وكان ذلك في ذي القعدة من العام الثامن للهجرة.

ثم أسلم أهل الطائف في رمضان من سنة تسع للهجرة وذهب وفدهم الي رسول الله صلي الله عليه وسلم في المدينة وسألوه أن يدع لهم صنم "اللات" لا يهدمها ثلاث سنوات، فأبي فما برحوا يسألونه سنة فيأبي حتي

سألوه شهرا واحدا فأبي، وأرسل معهم المغيرة بن شعبة (وهو من ثقيف) وأبا سفيان ليهدماه ,وأمر عليهم عثمان ابن ابي العاص وكان من أحدثهم سنا وذلك لأنه كان من أحرصهم علي الفقه في الدين وتعلم القران .

هذا عرض مختصر لأحداث غزوة حنين وما تبعها حتي دخول هوازن وثقيف في الاسلام.

وقد اشتملت هذه الغزوة الجليلة علي العديد من الفوائد التي نحاول استخلاص بعض منها:-

الفائدة الاولى:- ان الكثرة و القلة ليست عليهما مدار النصر والهزيمة في المعارك الحربية :

فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين، بل ان المعول الأساسي هو في الصبر والتقوي والترفع عن الآثام والخطايا، فالصبر والتقوي يستحق بهما الجيش استنزال ملائكة الله ونصره ، (بلي ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة الآف من الملائكة مسومين), فللعقيدة الصحيحة والصبر في الدفاع عن الحق قوة تفوق قوة الساعد والسيف ,والمبادئ – عامة – انما تنتصر بعمق ايمان أصحابها بها واخلاصهم في الدفاع عنهم وليس بكثرة أعداد المنتسبين اليها.

الفائدة الثانية:-ان الاغترار بالقوة أول طريق الهلاك و أن الاغترار بالكثرة و الزهد في القلة من أعمال الجاهلية:-

فحينما اغتر المسلمون بقوتهم وسمع في صفوفهم "لن نغلب اليوم من قلة" ابتلاهم الله وأذاقهم مرارة الكسرة و الهزيمة لكي يطأ من رءوس رفعت بالفتح ولم تدخل الحرم كما دخله رسول الله صلي الله عليه وسلم واضعا رأسه منحنيا علي فرسه تواضعا لله , ولكي يعملهم أن الله هو الذي يتولي نصر دينه لاكثرتهم، ,فلما انكسرت قلوبهم أرسل اليها خلع النصر مع بريد الجبر , فهو سبحانه انما يخلع نصره علي اهل التواضع "ونريد أن نمن علي الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين"..."القصص"

وكذلك لما اغترت قريش بقوتها – يوم بدر– وغرهم الشيطان بقوله "لا غالب لكم اليوم من الناس" لقوا الهزيمة علي أيدي المسلمين وهم حينئذ حوالي ثلثهم في العدد.

*الفائدة الثالثة" : حرص رسول الله صلي الله عليه وسلم علي عقيدة التوحيد الخالص:-

ويتجلى ذلك واضحا في انكاره صلي الله عليه وسلم علي المحاربين حين طلبوا أن يجعل لهم شجرة يتبركون بوضع أسلحتهم عليها كما يفعل المشركون فقالوا له " اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط " ,وتعاظم انكاره عليهم حتى شبه هذه المقالة بمقالة أصحاب موسى له " اجعل لنا الها كما لهم آلهة"، ومن ذلك يتبين حرصه علي التوحيد الخالص فهو أساس دعوة الاسلام ولبه , واشتداده في النهي عن الشرك ومن أول سبله التبرك بالحجر أو بالشجر فنهي عن ذلك احتياطا وشبهه بأعلى درجات الشرك وهو اتخاذ اله مع الله لكي يعلموا أن الله وحده بيده النفع والضرر فتتعلق قلوبهم به وحده دون سواه، وقد تبعه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقطع شجرة بيعة الرضوان التي ذكرها الله تعالي في كتابه العزيز لما رأي من تبرك الناس بها.

كما أن النبي صلي الله عليه وسلم رفض أن يدع لثقيف – حين أسلمت – طاغيتهم "اللات" الي أي أجل مسمي، بل أرسل معهم من يهدمه حين رفضوا فعل ذلك بأيديهم بمجرد القدرة علي ذلك , فالإيمان بالله يستلزم الكفر بالطاغوت ولا يستقيم ايمان بالله مع الابقاء علي الاصنام، و لا يجتمع التوحيد مع الشرك و لا يتفق التوحيد مع التثليث، حقيقة قد قبل رسول الله صلي الله عليه وسلم اسلام ثقيف حين اشترطت أن لا صدقة عليهم ولا جهاد، ولكنه لا يقبل أبدا أي مظهر من مظاهر الشرك. روي الامام أحمد في المسند عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال (اشترطت ثقيف علي رسول الله صلي الله عليه وسلم ان لا صدقة عليهم ولا جهاد, وأن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال: سيتصدقون ويجاهدون. واستدل من ذلك الامام أحمد علي صحة الاسلام مع الشرط الفاسد ثم يلزم بشرائع الاسلام كلها.

الفائدة الرابعة:-"ان الله يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب ولا يعطي الدين الا لمن يحب"

فرسول الله صلي الله عليه وسلم يعطي أهل مكة من الغنائم –وهم حديثو العهد بالاسلام – تألفا لقلوبهم , بينما يمنعها عن اصحابه من الأنصار الذين آووه ونصروه وقاتلوا معه حين خذله قومه لما علم من قلوبهم التقوي ومحبة الله ورسوله وايثارهم ما عند الله علي المتاع الدنيوي، و حين سمع ما تفوه به بعض الأنصار من أن النبي صلي الله عليه و سلم يعطي أهله من مكة و يمنعهم، وعظهم موعظة بليغة أسالت منهم الدموع و طمأنهم أنه سيعود معهم الي المدينة و لن يبقي ببلدة المنشأ مكة بعد الفتح، وأخبرهم بأنه ستكون بعده أثره فأمرهم بالصبر حتي يلقوه علي الحوض، وقد نجح بذلك في تأليف قلوب أهل مكة الي الاسلام فمنهم الفاضل المجتهد كالحارث بن هشام وسهيل بن عمرو (وهو مبعوث قريش في اتفاقية الحديبية الذي كره الصحابة تعنته في بنود صلح الحديبية، و لكنه بعد وفاة النبي صلي الله عليه و سلم عصم الله به أهل مكة من الردة حين ارتد العرب حين و قف في قومه خطيبا طالبا منهم أن يتعظوا بغيرهم و ألا يكونوا أخر المسلمين و أول المرتدين) وحكيم بن حزام ومنهم خيار دون ذلك كصفوان بن أمية ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم أجمعين، بينما أسلم يوم الفتح رجال وثق رسول الله صلي الله عليه وسلم بنياتهم في الاسلام لله فلم يدخلهم فيمن أعطاه كعكرمة بن ابي جهل وجبير بن مطعم وعتاب بن اسيد رضي الله عنهم أجمعين.

وهذا يفيد ان العطاء الدنيوي من زينة الحياة الدنيا ليس هو علامة محبة الله تعالي للعبد وانما التوفيق الي اتباع شرائع الدين هو الكرامة الحقيقية وهو علاقة رضا الله عنه.

الفائدة الخامسة:-حرص النبي صلي الله عليه وسلم علي اعطاء فرصة القيادة للشباب الصالح:-

فقد أمر(بتشديد الميم) عتاب بن أسيد علي مكة وهو ابن احدي وعشرين سنة , فأقام بها أميرا حتي قبض رسول الله صلي الله عليه وسلم وثبته أبو بكر عليها كما ان النبي صلي الله عليه وسلم ولاه امارة أول حج في

الاسلام في العام الثامن للهجرة وذلك لما لمسه فيه من الورع و التقوي، كما يتضح هذا المبدأ أيضا في تولية عثمان بن أبي العاص الامارة علي وفد ثقيف حين أسلموا وكان من أحدثهم سنا وذلك ان كان من احرصهم علي الفقه في الدين و تعلم القرآن .وهذا الحرص للافادة من قدرات الشباب و قوتهم وحماسهم، فهم يمتازون بقوة البدن وطهارة الجنان وحداثة العهد بالفطرة وهم أساس دعوة الاسلام فحين بعث الله نبيه بالحق حالفه الشباب من امثال عمار و صهيب وبلال و عمر و خالفه الشيوخ الذين قست قلوبهم من أمثال عتبه وشيبه ابني ربيعة والوليد بن المغيرة وأبي جهل وأبي لهب ، فالشباب هم الذين قامت بسواعدهم حضارة الاسلام الأولي وهم أمل الأمة في حاضرها و مستقبلها، كما ان اعطاء فرصة القيادة للشباب الصالح يعطيهم الثقة بالنفس والحافز لتنمية قدراتهم والتنافس في الخير ويعزز من انتمائهم لدينهم و وطنهم.

الفائدة السادسة:-ان السلامة من ألسنة الناس غاية لا تدرك "كما قال الامام الشافعي رحمه الله.

فهذا هو رسول الله صلي الله عليه وسلم مبعوث الرحمة الالهية للعالمين وغاية العدل البشري يأتي من يتهمه بالظلم ويقول له "اعدل يا محمد"

والفائدة من هذا ان علي المرء اتباع الحق الثابت وسلوك سبيل المؤمنين راغبا في مرضاة مولاه بغض النظر عن موقف الأخرين منه وما يلوكونه بألسنتهم عنه، فهو لن يستطيع أن يرضي الناس جميعا كما انه لن يسلم من السنتهم علي اية حال.

الفائدة السابعة:-أن التوكل علي الله لا ينافيه الاخذ بالأسباب:-

فهذا رسول الله صلي الله عليه وسلم يعد العدة ويعقد الألوية ويرسل العيون للتجسس علي أحوال المحاربين ثم يتوكل علي الله تعالي عند القتال، وعند عودته يرد النصر الي الله تعالي فيقول "وهزم الاحزاب وحده" فيتعري من الحول و القوة ويرد الامر كله لمولاه.

الفائدة الثامنة:-ان شجاعة القائد تعطي الثقة للجنود المحاربين : فحين تولي عنه المحاربون ثبت النبي صلي الله عليه وسلم يواجه المشركين علي البغلة التي لا تصلح للكر ولا للفر وهو يصيح بالمسلمين أن يثبتوا وألا يتولوا فالتولي يوم الزحف من كبائر الذنوب – وطلب من العباس أن ينادي أقواما بعينهم يذكرهم فكان نتيجة ذلك أن رجعوا الي الميدان وقاتلوا حتي كتب الله لهم النصر.

الفائدة التاسعة:-رحمته صلي الله عليه وسلم بالمسلمين:-

فقد رحم أهل هوازن حين أتوه مسلمين فرد عليهم نسائهم وأبنائهم وهم اعز ما يملكون واستأذن في ذلك المسلمين فأذنوا له , ومن رفقة لشيبة بن ابي عثمان الذي أراد قتله ورحمته به حتي انصرف كأنه ولي حميم وصدق الله حين قال عن رسوله "لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم"التوبة128

الفائدة العاشرة: إن المشركين يكنون دائما الحقد للمسلمين:-

فما ان ظهرت بوادر الهزيمة في بداية الحرب حتي انطلقت أفواههم بالبغضاء مثل "لن ترد هزيمتهم دون البحر" ومثل "بطل اليوم السحر" وما تخفي صدورهم أكبر.

وفي الغزوة من امارات نبوته صلي الله عليه وسلم :-

1-عصمة الله له وايصاله القبضة التي رمي بها الي عيون اعدائه علي البعد منه وبركته في القبضة التي ملأت أعين القوم .

2-علمه بما يدور في نفس شيبة واخباره له بما في نفسه مما لم يطلع عليه بشر.

***من الفوائد الفقهية:-

1- جواز استعارة الاسلحة من الكفار.

2- جواز وطء المسبيات ولو كن ذوات ازواج بشرط أن تحيض كل منهن حيضة واحدة أو أن تضع ذات الحمل حملها

3- أنه يجوز للامام أن ينفل بعض الناس ويمنع آخرين من الغنيمة للمصلحة

غزوة تبوك

في السنة التاسعة من الهجرة ، وبعد أن فتح الله لنبيه صلى الله عليه وسلم الفتح المبين ، وأرغم به أنوف الكافرين ، أقبلت قبائل الجزيرة العربية تدخل في دين الله أفواجاً ، وبدأت الجاهلية وكأنها تلفظ أنفاسها الأخيرة وعلى صعيد آخر في بلاد الشام ، كان هرقل الروم وحلفاؤه من قبائل العرب يتأهبون للقضاء على دولة الإسلام فكان النبي عليه الصلاة والسلام يعد العدّة لمبادرتهم بالغزو والخروج إليهم لقتالهم .

في ذلك الوقت كان المسلمون في موقف لا يحسدون عليه أبداً .

أما الزمان فحرٌ شديد في زمن قيظ .

وأما أحوالهم المادية فجدبٌ وعسرٌ .. وفقرٌ وقلة ظهر , ومن جانب آخر فقد كانوا في موسم تطيب فيه الثمار ، فالنفوس متعطشة إلى الإقامة في ظلال المزارع ، وأكل الرطب الشهي ، وشرب الماء البارد .

وأما المسافة فأرضٌ بعيدة ..على طرق وعرة.. بين رمال محرقة .

ومع هذه الظروف العصيبة لم يكن القائد المحنك صلى الله عليه وسلم وجنوده البواسل ليترددوا أو يتوانوا عن الذود عن الدين ، وقمع أعداء الله الكافرين.

وكان من عادته عليه الصلاة والسلام أنه إذا أراد غزوة ورّى بغيرها لئلا يسبقه الجواسيس بخبر خروجه , فلما كانت هذه الغزوة جلّى أمرها للناس حتى يأخذوا أهبتهم لهذا السفر البعيد .

فما هو إلا أن سمع الصحابة نداءه عليه الصلاة والسلام حتى تسابقوا إلى المشاركة .

ويدخل فقراء المؤمنين على الرسول صلى الله عليه وسلم يسألونه أي وسيلة تنقلهم إلى قتال الروم فإذا قال لهم { لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون }

وكان من هؤلاء البكائين عُلْبة بن زيد رضي الله عنه ، تاقت نفسه إلى الجهاد لما سمع نداء النبي صلى الله عليه وسلم إلا أنه لم يجد راحلة تحمله ، فذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله راحلة تحمله فلم يجد عنده شيئاً ، فقام في الليل بين يدي الله تعالى ، فصلى وبكى وقال :" اللهم إنك أمرت بالجهاد ورغبت فيه ، ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به مع رسولك ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه ، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها من مال ، أو جسد ، أو عرض ، ثم أصبح مع الناس ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم " أين المتصدق هذه الليلة " فلم يقم إليه أحد ، ثم قال : " أين المتصدق ، فليقم " فقام إليه ، فأخبره ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم " أبشر فوالذي نفس محمد بيده لقد كتبت في الزكاة المتقبلة " .

وهب الصحابة إلى التصدق بالغالي والنفيس من كرائم أموالهم أبو بكر..عثمان ..عبدالرحمن بن عوف..عمر..العباس..وغيرهم .

وهبت النساء إلى التصدق وألقين حليهن وخلاخلهن وخواتمهن في مشهد رائع من مشاهد التضحية والإيمان .

وحتى فقراء المسلمين كان أحدهم يأتي بالصاع أو نصف الصاع من التمر لا يجد في بيته غيره فيلمزه المنافقون فيقولون : إن الله لغني عن صدقة هذا .

وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يتجهزون للخروج ، وكان ممن هم بالتجهز الصحابي كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه وكان صحابياً جليلاً ممن شهد مع النبي صلى الله عليه وسلم جميع الغزوات إلا غزوة بدر.

كان كعب كلما هم بالتجهز قال لنفسه : " أنا قادر على ذلك إذا أردت " حتى تمادى به التسويف والتردد فلم يشعر إلا ورسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون قد خرجوا من المدينة باتجاه تبوك .

وهذا فيه درس في خطورة العجز والتسويف إذا حلت فرصة القربة والطاعة ، فإن الله يعاقب المتواني بأن يحول بينه وبين قلبه ويثبطه عن العمل ، فالحازم من ينتهز الفرصة ويبادر إلى الطاعة .

اشتد حزن كعب لتخلفه عن الخروج مع النبي صلى الله عليه وسلم حتى إنه قال عن نفسه : " فهممت أن أرتحل فأدركهم فيا ليتني فعلت ، ثم لم يقدر لي "

وفي المدينة كان كعب يخرج من بيته فلا يرى في شوارع المدينة من المتخلفين إلا منافقاً أو رجلاً معذوراً من الضعفاء ، فيعتصر الحزن والألم في قلبه ، إذ هو صاحب الهمة العالية والقدم الصادقة في الإسلام فكيف يرضى أن يكون بمنزلة هؤلاء ؟

سار الجيش الإسلامي إلى تبوك في جمع غفير قوامه ثلاثون ألفاً لم يشهد المسلمون مثله ، ولم يكن يجمع أسماءهم سجل أو ديوان ، فكان المتخلف يظن أنه قد لا يعرف تخلفه إلا أن ينزل فيه وحي .

واشتد على الصحابة عناء السفر بسبب القلة الشديدة في الزاد والمركب فكان البعير الواحد يعتقب عليه ثمانية عشر رجلاً يركب هذا وينزل هذا ، وكانوا يأكلون أوراق الشجر من الجوع حتى تورمت شفاههم ، ويذبحون البعير ليشربوا ما في كرشه من الماء . ولهذا سمي هذا الجيش جيش العسرة.

وصل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى تبوك ونزلوا هناك واستعدوا للقاء العدو . فما إن سمع الرومان وحلفاؤهم بنزولهم حتى دب فيهم الرعب فتفرقوا في البلاد فكان هذا نصراً عظيماً ومكسباً للدولة الإسلامية وسمعتها العسكرية .

ولما قدم النبي صلى الله عليه وسلم تبوك قال لأصحابه : " ستهب عليكم الليلة ريح شديدة ، فلا يقم منكم أحد ، فمن كان له بعير فليشد عقاله " فهبت ريح شديدة فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبلي طيئ !!(رحلة جوية من تبوك إلى حائل بدون تذاكر ولا طائرات)

وبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في تبوك تذكر صاحبه كعب بن مالك فقال : " ما فعل كعب بن مالك ؟ " . فقال رجل من بني سلمة : " حبسه براده والنظر في عطفيه " (يريد أنه تعلق بالدنيا التي منعته من الخروج) . فرد عليه معاذ بن جبل رضي الله عنه فقال : " بئس ما قلت والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً " فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذا فيه درس في ذب المسلم عن عرض أخيه إذا ما اغتيب عنده .

أقام النبي صلى الله عليه وسلم بتبوك عشرين ليلة ثم رجع هو وجيشه المظفر إلى المدينة منصورين ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكانت هذه آخر غزواته عليه الصلاة والسلام .

لقد كانت هذه الغزوة بظروفها الصعبة اختباراً شديداً للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه تبين فيها صدق المؤمنين من الأنصار والمهاجرين وظهر كذب المنافقين الذين رضوا بالحياة الدنيا وتخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فشتان بين الطيب والخبيث قال تعالى { ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب } وقال سبحانه { أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين } .

لكن ماذا عن كعب بن مالك ؟

لما بلغ كعب بن مالك قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك ازداد همه وبثه وهو يقول لنفسه : كيف أخرج من سخط رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

وتواترت الهموم على كعب حتى إنه أخذ يستشير أهل الرأي من أهله , وكانت بوارق الكذب تلوح له في خضم هذا الموقف الرهيب الذي تزل فيه الأقدام ولكن الله تعالى ثبته وقذف في قلبه محبة الصدق . فعزم على أن يصدق النبي صلى الله عليه وسلم مهما كانت الأحوال .

دخل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فبدأ بالمسجد وصلى فيه ركعتين ثم جلس للناس كعادته وجاءه المخلفون يعتذرون إليه فيقبل منهم علانيتهم ويستغفر لهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى .

ويدخل كعب المسجد فيسلم فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم تبسم تبسم المغضب ثم قال له : تعال . يمشي كعب حتى يجلس بين يديه صلى الله عليه وسلم فيسأله ويقول له : " ما خلفك ؟ ألم تكن قد اشتريت ظهرك؟ " فيرد كعب على هذا السؤال الحاسم بكلمات بليغة ملؤها الصدق والإيمان ، ومراقبة الواحد الديان . قال : " يا رسول الله إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر ، لقد أعطيت جدلاً ، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يُسخِطك علي ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عقبى الله .. والله ما كان لي عذر .. والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك " .

بعد هذه المحاورة الساخنة غادر كعب المسجد فلحق به رجال من بني سلمة وأخذوا يؤنبونه ويقولون : " والله ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا ، لقد عجزت في أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر به المخلفون ، فقد كان كافيك ذنبَك استغفارُ رسول الله صلى الله عليه وسلم "

واشتد تأنيبهم لكعب حتى هم أن يرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكذب نفسه !!! .

ثم إنه سألهم : هل لقي هذا معي أحد ؟ قالوا : نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك ، مرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي .

نظر كعب وإذا بهذين الرجلين من صالحي الصحابة من أهل بدر فكان في موقفهما أسوة لكعب فثبت على موقفه اقتداءً بهذين الرجلين .

وينزل البلاء بهؤلاء الثلاثة فينهى النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة كلهم عن الكلام معهم . فاجتنبهم الناس وتغيروا عليهم حتى تنكرت لهم الأرض وضاقت عليهم . أما مرارة وهلال فقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما كعب فكان أشب الثلاثة فكان يخرج من بيته ويطوف بالأسواق ولا يكلمه أحد.. ويدخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في مجلسه بعد الصلاة فيأتي ويسلم عليه فلا يدري هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ؟ .. ويصلي قريباً من النبي صلى الله عليه وسلم ويسارقه النظر فلا ينظر إليه . فإذا اقبل كعب على صلاته نظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا التفت إليه أعرض عنه .

ولما طالت جفوة الناس توجه كعب إلى مزرعة لابن عمه أبي قتادة وكان أحب الناس إليه .. يدخل كعب فإذا
أبو قتادة جالس في المزرعة .. يسلم فلا يرد عليه السلام .. فيقول كعب : أنشدك بالله هل تعلم أني أحب الله
ورسوله ؟ وفي هذه اللحظة يتذكر أبو قتادة نهي النبي صلى الله عليه وسلم فلا يرد بأدنى كلمة . فيعيد كعب
سؤاله : هل تعلم أني أحب الله ورسوله ؟ هل تعلم أني أحب الله ورسوله ؟ فيقول أبو قتادة في الثالثة : الله
ورسوله أعلم . فتفيض دموع كعب على خديه ويقوم راجعاً إلى المدينة .
وفي سوق المدينة قدم نبطي من أنباط الشام يسأل عن كعب بن مالك . وإذا كعب يمشي في السوق والناس
يشيرون إليه ولا يتكلمون فلما رآه دفع إليه رسالة من ملك غسان , فتح الرسالة وإذا فيها : (أما بعد فإنه قد
بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوانٍ ولا مضيعةٍ فالحق بنا نواسك) ومع شدة الإغراء وعظم
البلاء إلا أن أيمان كعب لم يكن ليتزحزح في هذا الموقف . فما إن قرأ الرسالة حتى قال : " وهذه أيضا من
البلاء " ، ثم أخذ الرسالة وأحرقها في التنور .
وبعد أربعين يوماً أمر النبي صلى الله عليه وسلم الثلاثة أن يعتزلوا نساءهم فيقول كعب لزوجته الحقي بأهلك
حتى يقضي الله في هذا الأمر . وتدخل زوجة هلال بن أمية على النبي صلى الله عليه وسلم تشكو إليه حال
زوجها تقول : " إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه قال لا ولكن لا يقربنك فقالت
إنه والله ما به حركة إلى شيء ووالله مازال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا " .
وفي هذا بيان عظم شأن المعصية ، وخوف المؤمن من عواقبها .
قال الحسن البصري : يا سبحان الله ! ما أكل هؤلاء الثلاثة مالاً حراماً ، ولا سفكوا دماً حراماً ، ولا أفسدوا في
الأرض ، أصابهم ما سمعتم ، وضاقت عليهم الأرض ، فكيف بمن يواقع الفواحش والكبائر.
أشار بعض أهل كعب عليه أن يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأته كما فعلت زوجة هلال فأبى
وقال : لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يدريني ماذا يقول إذا استأذنته وأنا رجل شاب .
ومضت الأيام والألم والشدة تزداد بالثلاثة يوماً بعد يوم حتى بلغوا الحال التي وصفها الله تعالى بقوله {
ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه } .
وتقترب ساعة الفرج فيصلي كعب صلاة الصبح بعد تمام خمسين ليلة . وبينما هو جالس إذ سمع صرخاً من
فوق جبل سَلْع يصرخ بأعلى صوته : " يا كعب بن مالك أبشر" فعلم كعب أنه قد جاء الفرج فخر لله ساجداً .
ما الذي حدث في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وما قصة هذا الصوت ؟
لقد تاب الله تعالى على الثلاثة الذين خلفوا ، وأنزل في توبتهم على رسوله صلى الله عليه وسلم آيات تتلى إلى
يوم الدين { وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا

أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم يا أيها الذين ءامنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين }

تلقى الصحابة الخبر فانطلقوا إلى الثلاثة يبشرونهم بتوبة الله عليهم ، فركب رجل فرساً وانطلق مسرعاً إلى كعب ، وصعد آخر الجبل فرفع صوته فكان الصوت أسرع من الفرس .

يقول كعب : " فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبَيّ فكسوتهما إياه ببشارته والله ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبين فلبستهما فانطلقت أتأمم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنئوني بالتوبة ويقولون : لتهنئك توبة الله عليك " .

يدخل كعب المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس والناس حوله ووجهه يبرق من السرور كأنه قطعة قمر , ويقوم طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه يهرول حتى صافح كعباً وهنأه فكان كعب لا ينساها لطلحة ، فلما سلم كعب على النبي صلى الله عليه وسلم قال له : أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك .

قال : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : لا بل من عند الله .

أيها الأحبة : ما أجمل لحظات التوبة .. وما أعظم فضل الله على المذنبين .

من منا لم يذنب ؟ ومن منا لم يفرط في جنب الله ويقصر في حقه ؟

ومع هذا فإنه سبحانه ينادينا معاشر المذنبين وإن بلغت ذنوبنا عنان السماء أن نتوب إليه { قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . إن الله يغفر الذنوب جميعاً . إنه هو الغفور الرحيم }

نداءٌ من القلب ، ودعوةٌ صادقة إلى التوبة من الذنوب،والإنابة إلى الله علام الغيوب.

جلس كعب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : " يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك بعض مالك فهو خيرٌ لك قال فإني أمسك سهمي الذي بخيبر " ثم قال كعب : " يا رسول الله إن الله إنما أنجاني بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت "

هكذا عاهد كعبٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهل وفى بهذا العهد ؟

هاهو يحدث عن نفسه بعد أن كبُر وعمي بصره يقول : " فوالله ما علمت أن أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومي هذا أحسن مما أبلاني الله به ، والله ما تعمدت كِذبةً منذ قلت ذلك لرسول صلى الله عليه وسلم إلى يومي هذا ، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي "

هكذا أيها الأحبة كانت عاقبة الصدق الحميدة .

إن المؤمن الصادق مهما اشتدت به المحن ، وضاقت السبل ، ولاحت له بوارق الكذب في مواطن الابتلاء ، فإن الله تعالى يثبت قلبه ويجعل لهم من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً .

والصدق والثبات من أعظم نعم الله على المؤمنين ، ولهذا كان كعب لا يعدل بهذه النعمة أي نعمة أخرى بعد الإسلام يقول : " والله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد إذ هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أكون كذبته فأهلِك كما هلك الذين كذبوا ، إن الله قال للذين كذبوا حين أَنزل الوحي شر ما قال لأحد ، قال الله تعالى : { سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين } .

تلكم أيها الأحبة بعض أحداث غزوة تبوك وفيها من الدروس والعبر ما تقدمت الإشارة إليه في أحداث القصة . جهاد وتضحية .. وصدق وإخلاص .. وإيمان ومراقبة .. وتوبة وإنابة .

هذه أهم غزوات النبي صلى الله عليه وسلم وفيها من العبر والدروس والمواعظ التي تنير طريقنا في الحياة والتي يمكن أن نستفيد منها على مدار التاريخ في حروبنا وتعاملاتنا مع الكفار أعداء الله فنسلم بديننا ودنيانا , و نسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين ، ويلحقنا بالصالحين ، ويحشرنا في زمرة الصادقين ، من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً ، والحمد لله رب العالمين , وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د.عبد الله القرشي الشامي